الفصل الأول

اندلاع الحرب الضروس

إن حياة كاملة من السرية المطبقة والتفرد المهني والاحتراف ، كانت الثمن الذى دفعه « هارى كار » ليتفادي المتاعب تفاديا كاملا في خضم الكفاح الهائل الذى خاضه مدى الحياة ، ولقد عاش « هارى كار » حياة طويلة حافلة بلغت الثامنة والثمانين ، أما أيامه الأخيرة فقد كانت مليئة بالذكريات ومفعمة بالأحاسيس ، وكان يفهم دائما أن الحرص المنظم بمثابة المؤهلات الضرورية للرجل الحرفى ولم تخل تلك الحياة الحافلة من الاتهامات التى نسبت إلى صاحبها وكذا الاتهامات المضادة ، وفى حالة المستر « كار » كانت تلك الاتهامات والاتهامات المضادة أكثر عنفا عن المعتاد ـ على الرغم من أن معظم زواره كانوا يستثيرون حفيظته وغضبه .

كان « هارى كار » يعيش فى شقة بها غرفة نومه ذات الطلاء الأبيض الشاهب وتقع فى الدور الثانى من بيت تقاعده الذى يطل على المناظر الطبيعية بنوافذه الجميلة ، إن « هارى » هو الذى وصف نفسه فى كتاب « هوية الشخصيات » أنه ضابط سابق بقسم جوازات السفر والسكرتير الأول فى الجهاز الاستخبارى الخارجى البريطانى ، ولقد أحاط نفسه بمجموعة أشياء تمثل ذكريات غالية لديه مدى الحياة وفيها : الأيقونة الفضية ، والقليل من لوحات ألوان الماء ذات الطلاء الجيد وتصور الطبيعة الخلابة ، وهدايا من المستر « بروكوفيف » الذى قام بطلاء اللوحات أثناء إحدى رحلات النزهة العائلية ، وصور فوتوغرافية عن أشخاص فى مشاهد الثلج ، وأدوات لعبة التنس وغيرها .

وتكشف هذه الهدايا التذكارية النذر اليسير أو على الأصح لاتكشف شيئا عن الأربعين عاما الماضية من حياة المستر « كار » وهى التى أنفقها كموظف فى الحكومة البريطانية على الرغم من أن الزائر ربما يلاحظ أن كتبه توحى بانشغاله الدائم واهتمامه بأجهزة المخابرات البريطانية .

وعلى مدار فترة إقامته فى داخل بيت التقاعد ، كان المستر « كار » يزهد فى كل شىء ويحتقر متاع الدنيا الزائل إلا الاتصال الروتينى مع جيرانه وأصدقائه المقربين

وكـان يتحرك بين تـارة وأخـرى داخل بيتـه ويستمع حينا إلى الأغـانى الشعبيـة الراقصة العاطفية التى تنتمى إلى الفن الشعبى والفلكولور الروسى وبخاصة تلك التى يشدو بها المغنى والمطـرب المفضل « بيوتـر ليشينكو » ، إلا أنه لم يعـرف يقينا مـا هو السبب الذى يدفع به إلى النزعة الفطرية فى الاستماع إلى تلك الأغانى بولع وغواية .

وحينما كان الشبـاب ذوو الوجوه الظـريفة من الموظفين الجدد يـزورونه على غير موعد أو بـدون توقع منه ، ويصلون إلى مكـان عمله القديم التماساً ـــ على حد قولهم ـ لخبرته وحنكته فى بعض شئون العمل وبخـاصة تلك التى كان يقوم بها فى الماضى قبل تقاعده ، فإنهم عـادة ماكان يجابهم تحفظه وتكتمه وفى نفس الـوقت يلقون منه حسن المعاملة وأطيب اللقاء .

وهـذا ربما كـان السبب فى أن يعـاود أرباب العمل (قسـم الجاسوسيـة بجهـاز الاستخبارات) إرسال ممثلين رسميين آخـرين إلى بيته لمعاودة التماس الخبرة وبعض التصفح فى شئون خاصة بأدق أسرار العمل نظراً لثقتهم العـالية فى مقدرته المهنية وفى أيامه الأخيرة كان كبار رجال الجهاز الاستخبـارى يرسلون بعمال النظافة (الذين هم أصلا من رجال المخـابرات) وقد تخفوا فى زى العمال العـاديين من أجل البحث عن أية مستندات فى منزله ربما يكون قد أخفاها منهم ، وخشيت أن تقع فى نفس الوقت فى أيدى غير أمينة تسيىء استغلالها مما يضر بالأمن القومى للبلاد .

وحينما توفى « هنـرى لامبتون كار » وفـاة طبيعية فى ١٩ مارس ١٩٨٨ ، كـان قد ترك فراغـاً رهيباً فى العمل السرى البريطانى ، فهو على مدار أربعين عامـاً ، كان قد شن خلالها حربـاً ضروساً ـ وهو أحد مـؤسسى جهاز المخابرات السرية البريطـانية ـ على روسيا السوفيتية ، وذلك بالتوازى مع أبنـاء العم من الولايات المتحدة الأمريكية داخل وكالة المخابرات المركزية الأمريكية الذين شنوا هم أيضاً حرباً ضروساً ضد روسيا .

ولقد أحس بفطرته أنه من الأفضل أن يترك الحسـابات والتى لم يتم تسويتها بعد طالما أن الأمور قد قضت بذلك ، وعلى الرغم من أن التاريخ قد سجل له جنونه واهتمامه الـزائد بمراعـاة الأمن القـومى لبلاده ، وانـه تعرض للغـدر وهَـوَّن الناس فى الجهـاز البريطانى السرى من أعمالـه وانتصاراته ، ولـذلك فقد ظل دائما مقتنعـا بما حققه من النجـاحات الشخصيـة التى لم يكن مستعـداً لشرحهـا ، إن وفاة « كـار » قطعت آخـر صلاته بتلك القصص التى لاتنتهى أعاجيبها .

مولد رجل الاستخبارات القوى

ولد المستر « كار » فى ٢٨ نوفمبر ١٨٩٩ بالقرب من عاصمة سانت بيترسبرج لأب يعمل مديراً لخمسة مطاحن بريطانية ، وكان يتمتع بحياة طلقةسعيدة كرجل مهاجر يسكن فى جزيرة « موسى » التى كانت تحتوى على ملعب تنس فريد فى نوعه مكسو بالخضرة والمناظر البهيجة ، كما كان والده يفاخر بوظيفته وحبه العظيم لبلاده ووطنه البعيد .

وفى ذلك الزمان البعيد كان آلاف من الألمان والبريطانيين والفرنسيين يعيشون مع عائلاتهم بالقرب من البحر البلطى حيث يعملون ويديرون أعمالهم ويكسبون أرزاقهم ومنهم من حقق الثروات الطائلة والأموال العريضة من المصانع والعقارات والضياع والبنوك فى روسيا الرأسمالية .

فقد كانت روسيا شأنها فى ذلك شأن سائر البلدان الأوروبية والأمريكية فى الغرب ، كانت موطنا لاجتذاب رؤوس الأموال والاستثمارات الأجنبية وكان يستثمر أمواله هناك أجيال كاملة كثير من رجال الأعمال الأجانب والتجار .

وهكذا جنى الثمار من جاء من بعدهم، فضلا عن حقيقة أن فقر روسيا مَكَّن أهل الغرب المستثمرين فى روسيا من الاستمتاع بحياة رغدة ومستوى معيشى مماثل لذلك الذى كان سائداً فى ظل الحكم البريطانى .

وحتى عام ١٩١٤ كان المستر « كار » قد شهد بحياته طرقا من هذا النعيم والبهجة وانطلاقة الحياة ، وفى نفس العام اندلعت نذر الحرب العالمية الأولى ، مما اضطر الأسرة إلى العودة إلى انجلترا فى مدينة « هيلى بيرى » حيث تلقى تعليمه هناك فى الكلية المسماة بنفس اسم المدينة .

وفى اثناء سنوات الحرب الناشبة ، أنفق المستر « كار » ذلك الزمان فى الدراسة منقطعا عن أسرته إلا أنه كان واثقا من سلامتهم وأنه لن يلحقه أذى بسبب ظروف الحرب ، وكذلك أسرته التى كانت تبعد مئات الآلاف من الأميال عن موقع العمليات العسكرية والحربية فى الجبهة الشرقية ، إلا أن هذا الوهم انفصم عام ١٩١٧ ، بسبب إندلاع الثورة البلشفية والإطاحة بأسرة « رومانوف » الحاكمة .

أصاب الاضطراب المستر « كار » لأن تقارير الصحافة آنذاك كانت تسجل تحقيق البلاشفة والثوار لانتصاراتهم المتوالية ، وكتب أن الثوار الجدد ثاروا يتحدون أعمق

أسس وجذور الرأسمالية الغربية ، حيث كانوا يدعون إلى الشيوعية ، ومناهضة المجتمع الرأسمالى الليبرالى المفتوح ويأمنون بالاقتصاد الموجه والمجتمع المنغلق وفرض الستار الحديدى .

وأخذ « لويد جورج » عقب تخرجه من كلية المدفعية الملكية وتوليه المناصب الكبرى فى انجلترا ، أخذ يجند المتطوعين الموالين المشهورين بالولاء والإخلاص والوفاء ويعدهم من أجل الاضطلاع والقيام بمهام خاصة داخل روسيا الشيوعية من أجل تغيير عجلة الأحداث هناك وإيقاف المد الشيوعى ، وتغيير وجه الحياة والتاريخ فى تلك البلدان التى عرفت آنذاك بجمهوريات الاتحاد السوفيتى .

انتهز « كار » الفرصة وعاد إلى روسيا عام ١٩١٩ عضوا فى جيش من الرجال السريين والعملاء والجاسوسية من أجل الإطاحة بالشيوعيين ، وكان شأنه شأن الكثيرين من الضباط المؤسسين لجهاز المخابرات السرية البريطانية ، إذ صارت حياته كلها مكرسة من أجل المغامرات العجيبة والخطيرة فى العمل الجاسوسى والسرى ، مما أدى إلى كسر شوكة العدو .

تنازل القيصر الروسى نيقولا الثانى فى مارس ١٩١٧ ، وكانت الحكومات البريطانية والفرنسية والأمريكية قد شغلتها المشكلات الملحة للحرب الدائرة على الجبهة الغربية وتجاهلت التحذيرات الواردة التى أضاءت الضوء الأحمر ضد الثورة الناشبة فى روسيا ، وفى ذلك الحين كانت الاستجابة الصادرة عن تلك العواصم الثلاث ، لندن وباريس وواشنطن بطيئة ومرتبكة ، فضلا عن نقص المعلومات وتشوهها وفقدان التعاطف مع النظام القديم القيصرى المخلوع .

وأصدر « لويد جورج » تعليماته ـ وكان رئيسا لوزراء بريطانيا آنذاك ـ بإرسال بعض المال إلى « الكسندر كيرينيسكى » رئيس الوزراء الجديد ، غير أن المزيد من المعونات والعون قد تم حجبه ، حتى يتم تلقى تقارير العميل الذى استأجره الأمريكان وهو المؤلف « سوميرست موم » الذى كان يسافر مرتحلا حينذاك عبر اليابان وفيلاديفستوك ، عن تحرياته وتجسسه فى تلك البقاع الشيوعية ، وحدث بعد ذلك أن استقال « كيرينيسكى » فى ٨ نوفمبر وحل محله « لينين » والبلاشفة .

وعلى الرغم من أن تلك الأخبار كانت مفزعة ، إلا أن الحكومة البريطانية اجتمعت وأخذتها الدهشة والرعب من التقارير التى قالت بأن الزعيم السوفيتى الجديد عقد

مباحثات ومفاوضات سلام ـ بعد توليه الحكم بأيام معدودة ـ مع الألمان ، وهكذا صار واضحا أمام الحلفاء الغربيين أن هدنة على الجبهة الشرقية صارت الآن مما يحسب حساب وقوعه ، والنتيجة هى أن الجيوش الألمانية سوف تتركز فى الغرب من أجل شن الهجوم الجديد ، وأنه فى حالة انهيار الحكومة السوفيتية الجديدة ، فإن الألمان سوف يتجهون من أجل ملء الفراغ على حساب الاستثمارات البريطانية الضخمة هنالك .

وباءت جميع محاولات « لويد جورج » لإقناع البلاشفة بالاستمرار فى الحرب ، وفى ٣ مارس ١٩١٨ ، وقع البلاشفة السوفيت مع الألمان معاهدة سلام كان من بنودها ، أن يدين الحكام الروس الجدد ويتخلوا عن مزارعهم التاريخية فى فنلندا .

كما جاء فى بنود هذه المعاهدة أن يتنازل الروس عن مزارعهم فى كل من جمهوريات البحر البلطيقى الثلاث وبولندا وأوكرانيا ، وراح الجيش الألمانى والقوات الألمانية تدعم من احتلالها لسائر هذه المناطق .

إن المحاولات السوفيتية اللاحقة للتنصل من تعهدات لينين هى التى وضعت الأساس للكثير من مؤامرات « كار » التى قام بها على مدار الأعوام الأربعين التالية ، وفى ٦ مارس ١٩١٨ ، اتخذ الحلفاء أول إجراء وقائى لهم حيث تم إرسال مائة وثلاثين غواصة بريطانية إلى روسيا تحت إمرة الميجور جنرال « ماينارد» ، وهى بمثابة المقدمة الأولى لما صار يعرف فيما بعد باسم « القوة التأديبية لشمال روسيا » .

وكان من مهام هذه البنودحماية المخازن والمواقع العسكرية الضخمة التى وردها الحلفاء إلى الجيوش القيصرية وتشكيل سلك شائك ضد المحاولات الألمانية لغزو شمال روسيا ، وكان هناك بعض الشخصيات فى لندن ، وبخاصة منهم المستر « ونستون تشرشل » الذين صاروا يتحدثون عن استخدام القوات والجنود البريطانيين كنواة لقوة مستقبلية للإطاحة بالبلاشفة .

وكان تشرشل حينئذ يشكل أقلية بصوته ، وبخاصة منذ هبوط الجنود البريطانيين فى « ميرمانسك » طبقا لأحكام اتفاقية « تروتيسكى » ، إذ كان المسترتشرشل تراوده أحلام توسيع الأمبراطورية البريطانية ، وكانت روسيا هى العدو التقليدى لبريطانيا فى آسيا ، ومصدراً للصراع الدائم على طول الجبهة الهندية وفى الأراضى الغنية بالبترول فى الشرق الأوسط .

ولقد أدت تعهدات لينين بنشر الثورة الشيوعية عبر العالم الغربى إلى أصداء واسعة

التـذكير وبمخاوف « ديـزرائيلى » الكبرى التاريخيـة ، إذ كـان يرى فى روسيـا الدولـة العظمى الضخمة المتنامية ، وقال تشرشل : إن البـلاشفة سوف يتسببون فى المزيد من تفاقـم الأوضـاع وسوئهـا عما كانت الأحـوال على عهد القيـاصرة ، فكانت إزالتهـم أمراً حيـويـاً لتأمين وحمايـة الاستثمارات البريطـانية الضخمـة وبخـاصـة الاستثمارات المتعاظمة داخل روسيا .

وتزامن مع وصول أول فرقة من القـوات البريطانـيـة إكمـال الميجـور جنرال « فريـدريك بوول » المشرف على إمـدادات جيوش الحلفاء ، إكمالـه بنجاح المفـاوضات السرية لشراء الأسهم الكبرى داخل البنوك الروسية الرئيسية .

واقترح مجلس الحرب البريطانى أن يكون هذا الشراء بمثابة الضربة لأن الاقتصاد الروسى سيكون مملوكا لبريطانيا مما سوف يساعد مساعدة فعالة فى تدعيم موقفها ، وكان الاعتقاد السـائد فى الحكومة البريطانية فى ذلك الحين أن انقلاب البـلاشفة سوف يكون بمثابة سحـابة الصيف التى سرعان ماسوف تنقشع ويحل محلهـا حكومة أكثر اقترابا مع الغرب .

أما بالنسبـة إلى البريطانيين ، فقد كانت الأولوية تتمثل فى إعـاقة التقدم الألمانى إلى داخل روسيا فى نفس الوقت الذى يشن فيه العملاء البريطـانيون داخل موسكو انقلابا مضاداً ناجحاً لإزالة الأنقاض الحمراء المثيرة للمتاعب والاضطرابات هناك .

وعلى مدار القـرون الخالية ، كانت البراعـة البريطانيـة فى خلق واحتلال الأراضى وضمها إلى الأمبراطورية البريطانية يعتمد أساساً على النشر الناجح للعملاء السياسيين الدواهى إلى المنـاطق الرئيسيـة لشراء المساندة من جـانب الجماعات المنـاوئة والمنشقة ولأجل الانضمام فى صفوف بريطانيا للحرب ضد العدو المشترك .

فكان بـذلك « العمل الخفى » بديـلا رخيصا وفعالا عن الاشتبـاك العسكرى ، وفى عام ١٩١٨ ، كـانت هناك أكثر من سبب للحكـومة البريطانية من أجل اللجـوء إلى هذه التكتيكات البارعة المتقنة والماكرة ، وبالتالى فقد سـاعد البريطانيون المقاومة السوفيتية المعادية لنظام حكم البلاشفة وأمدوهم بالمال والعتاد .

كـان الكابتن (نقيب) « فـرانسيس كـرومى » أحد مهنـدسى الانقلاب المضـاد ، ويعمل مساعـدا للملحق البحرى ، وجمع مليون جنيه نقـداً لتمويل أية مـؤامرات تفى بالغـرض المطلوب ، وفى أثنـاء العام الماضى ، كـان « كرومبى » الذى يعمـل مع ضباط

بريطانيين آخـرين وعملاء مختلفين مُذْكوِّن شبكة من البحـارة والعمال الروس الذين سوف يفـرقون فى مقـابل الـرشاوى وتنفيذا لأوامـر البريطانيين ، يغـرقون المنـاجم ، وينسفون مواقع الـذخائر والمخازن ويغرقون الأساطيل الـروسية فى البحرين البلطى والأسود .

وكانت الخطة تستهدف رسميا حرمان الألمان من أية مميزات مثل القيام بشن غزو مفـاجىء ، كما كانت المخططـات التى رسمتهـا أجهزة المخـابرات السريـة البريطانيـة تستهدف حرمـان البلاشفة أيضا من أيـة ميزات تمكنهم من المقاومـة مستقبلا ، فكان عليهم كذلك استخدام نفس الاستراتيجية ونفس الشبكة للتضييق على البلاشفة .

ومثل حلفـاء الـدبلومـاسيين فى شتى البقـاع ائتـلافـا صلداً مكـونـا من مختلف الجماعات القـومية التواقين لاستغـلال تفكك الحكم المركزى الـروسى من أجل فرض استقلالهم الخاص بهم وكـذلك استقلال القياصرة ، وكـانوا يعرفون لأسبـاب مختلفة باسم الروس البيض .

وتدعمـت أنشطة « كرومبـى » حيث تم تزويـده بسلسلة متـوالية ومتعاقبـة من العملاء المرسلين من لندن ، وكان مرسلهم هو السير « مانسفيلد كامينج » رئيس جهاز المخابرات البريطانية السرية ، وكان الغرض الكبير هو استغلال أية فرصة لإبعاد الثوار عن الحكم .

ولقـد أقنعت أنشطـة ثـلاثة عمـلاء على وجـه الخصـوص هم « سيـدنى ريلى » ، والكابتـن « جورج هيل » ، و « بول ديـوكس » ، بالتعـاون مع وجود الممثل البريطـانى الأول المستر « روبرت بروس لوكهارت » فى مـوسكو ، أقنعت البلاشفة عام ١٩١٩ بأن جهاز المخـابرات البريطـانية السريـة كان هـو عدوهم الأول والأقـوى ، ولقد ظـل هذا الانطباع سائدا على مدار أربعين عاما تقريبا .

أما « ريلى » الذى كان يطلق عليه أساسا اسم « سيجموند روزينبوج » ، فقد كان مغامرا ومستثمرا ورجل أعمال اكتسب ثروة لابأس بها كتاجر سلاح قبل وأثناء اندلاع الحرب العالميـة الأولى ، ومن خـلال ذلك استطاع أن يكـون صداقة نـاجحة مـع جهاز المخابـرات البريطانية السرية ، وفى ذلك الـوقت فى زمن البلاشفة وانقـلابهم الذى تم في عام ١٩١٧ ، كان « ريلى » يقوم بزيـارة إلى سانت بترسبرج كعميل وسرعان مااستطاع استغلال الفوضى الضاربة هناك .

وكان ذلك الرجل قد حباه الله بالمقدرة والموهبة على التنكر والتخفى فى وجوه عديدة بطرق متقنة لاتكشف حيث كان يستطيع أن يقدم نفسه للناس ببراعة كتاجر تركى أو تاجر يونانى أو كوميسار روسى .. الخ ، مما هيأ له الاطلاع على والوصول إلى مكتب « بتروتسكى » فى وزارة الخارجية .

والأشياء التى رأها أكدت بغضه ومقته لما وضعه « السرطان الخفى » للشيوعية ، وسرعان ماقبل فى شوق عرض الجهاز السرى للمخابرات البريطانية بالقيام بأية مؤامرات من شأنها أن تطيح بالشيوعيين عن السلطة فى البلاد ، وكان له اسم كودى هو « س . ت . ا » .

وحيث كانت الإمبراطورية الروسية غارقة فى الحروب الأهلية ، فقد كان أمرا واقعيا أن يتدبر ويتأمل فى كيفية تنفيذ انقلاب ناجح ومضاد ومناهض للبلاشفة ، واستطاع المسئول البريطانى والممثل الأنجليزى فى روسيا ، وهو « ريللى » استطاع أن يقابل مجموعة من الضباط فى جمهورية لاتفيا السوفيتية ، وهم أعضاء فى العرس الخاص للزعيم « لينين » وكانوا مستعدين لخيانته .

وسرعان ما شرع « ريللى » فى التآمر مع « كرومبى » بناء على أوامر من لندن لتدمير الأسطول الروسى فى البحر البلطيقى ، ولم يمض وقت طويل حتى استطاع عملاء وجواسيس الـ « تشيكا » الجهاز الاستخبارى الروسى أن يكشفوا تفاصيل المؤامرة البريطانية ، ناهيك عن خيانات الجواسيس والعملاء المزدوجين ، وكان الـ « تشيكا » هو جهاز المخابرات السرية السوفيتية الذى أعقب المخابرات القديمة المعروفة باسم « أوخرانا » وكانت روسيا القيصرية قد وسعت من أنشطته على مدار ثلاثة عقود كاملة من الزمان قبل الحكم الشيوعى للبلاد ، لكشف الروس المتآمرين والثوريين فى المنفى .

اخترق عملاء مخابرات « أخرانا » تنظيمات العديد من الشيوعيين ومجتمعاتهم وحيدتهم وبخاصة المنظمات التى اتخذت من أوروبا الغربية منفى لها (كما قيل : إنها زرعت أحد العملاء فى داخل بيت لينين على الرغم من أن ذلك لم يؤد إلى نفع ملموس) ، وفى أثناء العهد الذهبى وأيامه السعيدة التى أعقبت نشوب الثورة ، أمر لينين بتسريح وتفكيك جهاز الـ « أخرانا » كرمز لاحتقاره لنظام القياصرة ، إلا أنه سرعان ماستبدل به جهاز الاستخبارات السوفيتى الشهير المعروف باسم الـ « تشيكا » .

كان الرفيق « فيلكس دزرزنيسكى » مؤسس جهاز الاستخبارات السرية

السوفيتى الجديد الذى عرف باسم « اللجنة غير العادية لعموم روسيا الخاصة بمكافحة الثورة المضادة والتخريب » ، ينتمى إلى أصول بولندية وتشبع رجال دزرزنيسكى بإرشاده وتوجيهاته العنيفة : « إننا هنا من أجل القضاء على الإرهاب المنظم ... يتعين على جهاز الـ « تشيكا » أن يدافع عن الثورة ويقهر الأعداء حتى لو كان سيفه فى النهاية سوف يبتر رؤوس الأبرياء » ، مما جعلهم يؤمنون بأن جهاز التشيكا ليس من اختصاصه إصدار الأحكام بل الضرب بشدة وعنف .

ولما مات القيصر فى ٢٥ يوليو وإعلان السوفييت موته رسميا شهدت « ايكاتينبرج » مقتل كافة أفراد العائلة الامبراطورية ، وفى نفس اليوم استولى الروس البيض على المدينة المسماة « ايكايتنبرج » .

وفى ٣١ اغسطس تم استكمال مؤامرة اشترك فيها المستر « ريللى » وكان من جرائها أن أطلقت « دورا كابلان » وهى امرأة اشتراكية رصاصتين على الزعيم لينين فأصابته فى الرئة والعنق ، وكاد لينين أن يشرف على الموت وبعد ساعات من العملية اقتحم عملاء جهاز استخبارات الـ « تشيكا » السفارة البريطانية وأطلقوا الرصاص على « كرومبى » فأردوه قتيلا ،وشرعوا فى العربدة والقتل ، وأسروا وسجنوا الضباط القياصرة والمتعاطفين معهم .

هرب « ريللى » إلى بريطانيا غير أنه تم إلقاء القبض على « بروس لوكهارت » ثم تم إطلاق سراحه فيما بعد بالمقايضة والمبادلة مع أحد الممثلين السوفييت وهو « ماكسيم ليتفينوف » الذى ألقوا القبض عليه فى لندن كإجراء وقائى ، ومن هنا بدأت العلاقة المستقبلية والتاريخية بين جهاز التشيكا وجهاز الاستخبارات السرية البريطانية .

وعلى الرغم من أن مؤامرة « ريللى » جاءت بنتيجة عكسية ، نجد أن الحكومة البريطانية بالاشتراك مع معظم المراقبين الغربيين ظلوا على قناعة بأن نظام « لينين » سرعان ماسوف ينهار ، ضحية للفوضى والعوز والفقر والمجاعة والطاعون ونتيجة أيضاً لزحف الجيوش الروسية البيضاء التى جعلت تحتشد وتتلاقى فى فنلندا وسيبيريا وجنوب روسيا استعداداً للسير صوب موسكو وبيترومراد .

وفى يونيه هبط ستمائة جندى بريطانيين جدد فى « ميرمانسك » اعتبرت موسكو - تلك المدينة التى اتخذها الزعماء السوفيت عاصمة جديدة لدولتهم لتجنب مخاطر احتمال السقوط فى أيدى الألمان أو الحلفاء - إن وصول القوات الإرسالية التأديبية يخلو

من أية مصداقية تبرر الأدعاءات التى ساقها ومنها الاطلاع بمهام الحماية والحراسة .

أما لينين فقد استشفى وتعافى من محاولة الاغتيـال ، فقد نظر بعين الشك والريبة إلى الجيش الجرار المعادى الذى اتخذ معسكرا لـه فى الشمال ، مما حدا به إلى الشك من أن القوات البريطانية سرعان ما سوف تزحف على الكريملن .

وأما « لويد جورج » فقد كان يعتبر هذه القوات غير ذات قيمة فى روسيا إلا أنها تم إرسالها من أجل أسباب سيـاسية وليس من أجل أسباب عسكرية ، على أيـة حال كان البلاشفة يؤمنون بأن الساسة فى لنـدن لن يوافقوا على احتواء الثورة أو تدميرها ، غير أنه لم يكن هنـاك ثمة وزير يمانع في إيقاف الانـزلاق صوب تأييد الـروس البيض ضد الروس الحمر ، ولقد كان التمويل أكبر عقبة وكان أسهل الحلول تجنيد الحلفاء .

وفى الواقع كانت هناك فرقتان تنتميان إلى الجنود التشيك هما الحليفتان وقوامهما ٧٠٠٠٠ رجل ، الذين كانوا حتى عام ١٩١٧ ، يقـاتلون فى صفوف الجيوش القيصرية ضد الألمان ، وعلى الرغم من أنهم كانوا يرتحلون ويسافرون إلى بلادهـــم عبر مدينـــة « فيلاديفوستك » إلا أن لويد جورج كان يأمل فى التحـــول معهم والعودة صوب مدينة « ميرمانسك » حتى يتسنى للقيادة البريطانية السيطرة عليهم .

وبذلك صارت ضمانة سلامة التشيك الحجة والذريعة من أجل كافة أعمال الهبوط والإبراز اللاحقة التى قامت بها قوات الحلفاء .

وكان المصـدر الثانى للقـوات الضاربـة هى الولايـات المتحدة الأمـريكية ، وشرع اللورد « ريـدنج » السفير البريطانى فى واشنطن ، فى حـث الرئيس الأمريكـى ويلسون للالتزام باحتواء الثورة البلشفيـة ، أما العقبة فهى المبادىء الأربعة عشر التى نادى بها الرئيس ويلسون التى طالبت بعدم التدخل فى الشئون الداخلية للأمم الأخرى .

واقتنع ويلسون أن يرسل ١٥٠ فرداً من مشـــاة البحرية الأمريكيـــة إلى مدينـــة « ميرمانسك » على الرغم من أن الهدف كان أساسا الحراسة والقيام بواجبات الحماية ، ولدى وصول هذه القوات وبدون الرجوع إلى واشنطن تجاهل الضباط المحليون الأوامر ووضعوا أنفسهم تحت إمرة الجنرال « مـاينارد » ثم تم دفعهم صوب الجبهة والهدف حسبما قيل آنذاك : هو استطلاع التقـدم الألمانى ، إلا أن الخطط البريطانية كانت تتغير بصورة رئيسية .

وفى أول اغسطس اقترب أسطول صغير تـابع للحلفاء يقوده الجنـرال « بوول » ، اقترب من « شـانجيل » ثم احتجـزه البلاشفـة حينـذاك ، وسرعـان ماتبـادل الجنـود البريطانيون النـار مع المدافعين الشيوعيين الذين هربـوا فى وقت لاحق ، ورحب الروس البيض بالقـائد « بوول » الـذى استوثق من خـلال التقارير بـأن الجيش الأحمر كان يتقهقر فى كل من سيبيريا فى الشمال وفى الجنـوب ، وصارت موسكو عاريـة من الدفاع أمام الجيوش المعادية للثورة .

وبينما كـان « تروتسكى » يطلب المزيـد من القوات ، لم يـرسل الرئيس ولسـون سوى تعزيزات قدرها : ٤٥٠٠ من رجـال المشاه الأمريكان ، والمهندسين والأطباء ، هم الذين أبحروا إلى « ميرمانسك » ، أما القـوات الأمريكية الأخرى فقد أرسلت إلى سيبيريا للمساعـدة فى تدعيم صفوف الـ ٧٢٠٠٠ جنـدى يابانى وكتيبة من المشـاة البريطانين الذين هبطوا فى « فيلادفيستوك » من أجل حماية الفرقتين التشيك حسبما قيل آنذاك .

وفى خضم هـذه التعـزيـزات ونشر القوات ، شن الحلفـاء فى ٨ أغسطس هجـومـاً مضاداً كـاسحاً وناجحـاً على الجبهة الغربيـة ، التى صنعت نهاية لطمـوحات القيصر والعذر الأصلى لإرسال القـوات المتحالفة إلى روسيا ، وبدأت قوات الجنـرال « ماينارد » بناء على مبادرة ذاتية منهم بتجاهل الموقف الجديـد ، وشرعوا فى تجنيد القوات الروسية غير النظامية لمحاربة البلاشفة .

أمـا فى لنـدن ، حيثما اقتربت الحرب من وضع أوزارهـا ، شرع مجلس الـوزراء فى التركيز على روسيا السوفيتية ، أما الإجماع الذى تصور لينين أن يجمع ويوحد الوزراء ومستشاريهم العسكريين لإصـدار هجوم مباشر على موسكـو فلم يكتب له أن يتم على أرض الواقع .

وبعد مناقشة حاسمة فى ١٢ نوفمبر ، وبعد يومين من الهدنة استهدفت تقرير عما إذا كانت بريطانيا تعتزم سحق الثورة ، احتشدت مجموعة صغيرة من الوزراء فى قاعة العميد بحرى « بلينيكرز » فى وزارة الخارجية البريطانية لدراسة الاختبارات المقدمة من جانب الجنرال السير هنرى ويلسون ، رئيس أركان الحرب العامة الامبراطورية .

وكان ويلسون صريحا إذ طالب إما أن ترسل بريطانيا فرقاً عديدة إلى روسيا وهو أمر ربما يكون صعبا فى نفس الأسبـوع ، حيث أن أعظم حمام دم فى تاريخ العالم كان

قد انتهى وولى ، وإما أن تبذل بريطانيا كل ماتستطيع فعله على أرض الواقع لمساعدة أصدقائنا عن القيام ببداية جديدة ثم الانسحاب .

ولقد تزعم ونستون تشرشل ، عشية تعيينه وزير دولة لشئون الحرب الصقور المناهضين لما أسماه « الهلاك » ويرفع رايته قبل أسبوعين من ذلك اللورد روبرت سيسيل ، وكيل الوزارة لشئون البرلمان (وكيل وزارة الخارجية البريطانية لشئون البرلمان) الذى اقترح أن تتخذ الفرقة من روسيا مقراً وأن تكون بمثابة رأس الحربة للحرب الصليبية الغربية ضد البلشفية .

وكان المستر تشرشل يقول : إن روسيا سرعان ماصارت حيوانا بربريا على أيدى البلاشفة ، فهم قوم أسسوا بنيانهم على المجازر والدماء والاغتيالات وهكذا فإن الحضارة تتعرض للفناء تدريجياً فى مناطق كثيرة حول العالم .

وحث مجلس الوزراء على كسر شوكتهم باستخدام جيش جرار مروع من قوات التدخل متعددة الجنسيات لأنه مالم يتم ذلك ، فإن الحلفاء سوف ينتهى بهم المطاف فى مؤتمر السلام إلى الابتهاج بانتصار ليس له أساس ، وليس بانتصار فى شىء .

وعلى الرغم من أنه بحلول نهاية عام ١٨١٩ ، كان هناك ١٨٠٠٠٠ جندى أجنبى على أراضى روسيا والمناطق التى يسيطر عليها البلاشفة التى كانت لاتزال صغيرة ، غير أنه يؤيد المستر ونستون تشرشل أصدق الوزراء فى المجلس واعتبروا أن اقتراحاته عدوانية .

ولقد تزعم لويد جورج الإدانة لما أسماه « المشروع المجنون » الذى سوف يتسبب على حد قوله فى نشوب « ثورة فى بريطانيا » غير أن تشرشل كان صلفا عنيداً فى موقفه ، ولما سمع بأن رئيس الوزراء ينظر فى عقد مفاوضات مع النظام الجديد ، هرع مسرعا إلى مقر رئاسة الوزراء البريطانية فى ١٠ داوننج ستريت وأخبر زعيمه بأنه « ليس من الحكمةإضفاء المشروعية على اللواط حيث ذلك يكافىء الاعتراف بالبلاشفة ، وأدان فظائع لينين إدانة عنيفة وكذلك المذابح التى نصبها للأبرياء .. وجعل يصب جام غضبه على النظام الروسى الجديد ويصفه بأقذع الوصائف .

ولما كان الساسة قد افترقت كلمتهم حينما اصطدموا بهذا المأزق ، فإنهم جعلوا يتبادلون كلمات الهراء والجدل ، وتقرر أن يتم إرسال بعض القوات البريطانية إلى « أرشانجيل » وإرسال جنود ومستشارين وإمدادات إلى الجنرال أنتون دينكين الذى

كان يقود الجيوش المناهضة للبلاشفة فى الجنوب ، كما تقرر أن يتم تنصيب تجريدة عسكرية من الجنود لحراسة خط السكك الحديدية الذى يربط بين البحر الأسود وبحر قزوين .

وفى الأسابيع التالية تم إرسال ٤٠٠٠ (أربعة آلاف) جندى بريطانى إلى أرشانجيل ، فصار العدد الاجمالى ٦٣٠٠ (فى مقابل ٥٢٠٠ جندى أمريكى) ، فضلا عن زيادة أعدادها إلى ١٨٤٠٠ جندى ، وكان هذا الحل الوسط عرضة لتفسيرات عديدة مختلفة ، وفى الوقت الذى كانت فيه وزارة الخارجية تؤمن بأن بريطانيا يجب ألا تتدخل فى الشئون الداخلية لروسيا إلا أنها مع ذلك كانت تخشى من أن انسحاب القوات البريطانية سوف يؤدى إلى سوء الفهم ، وأما الآخرون فقد كانوا يعتقدون بأن هذا القرار ماهو إلا عبارة عنا التزام لتدمير البلاشفة .

وكان من بين الذين وصلوا إلى « ميرمانسك » فى ١٩١٩ شاب اسمه « هارى كار » ويبلغ من العمر تسعة عشر عاماً ، والذى استطاع أن يشق طريق عودته إلى روسيا وإن وجد فرصة فى الخدمة من صفوف الجيش ، وجندته وزارة الحربية كمترجم ، وتم إلحاقه على هيئة العاملين التابعة للجنرال « مارينارد » وفى غضون أيام سرعان ماتم تقديمه إلى قدس أقداس المؤتمرات والمكائد البريطانية .

وبعد ستة أسابيع من وصوله ، تعرف والده على القائد الجديد للبعثة التأديبية وهو الجنرال « إدموند إيرونسايد » واستطاع أن يضمن لابنه النقل إلى المقر الكائن فى « أرشانجيلة » والعودة إلى أفراد عائلته .

كان التراجمة أعضاء فى قسم المخابرات الحربية واعتمدت أركان « ايرونساند » عليهم اعتماداً كبيراً أكثر من المعتاد وكذلك على الجواسيس ومتعهدى توريد وتقديم المعلومات لقسم العمليات الخاصة التنفيذية ، واستطاع المستر « كار » عن طريق سفرياته مع « ايرونساند » أن يتبوأ مكانته داخل مهنة المخابرات السرية .

وكانت روسيا حينذاك لاتزال تبدوا على شفا حفرة التفكك ، وتم الإحاطة بالجيش الأحمر من ثلاث جبهات وأعلنت أغلبية الأجناس غير الروسية من سيبيريا حتى البحر البلطى استقلالها .

وصدرت المزاعم من أكرانيا وكريميا وسكانهما من القوازقة وأهل جورجيا ، والأرمن ، والأذربيجانيين التى تطالب بالحق فى إنشاء دولة خاصة بهم ، فى حين أن

سكان ليتوانيا ولاتفيا وأستونيا قد أفادوا من معاهدة « بريست ليتومنسك » ومناشدة الغرب بالاعتراف بقومياتهم ، وهى المطلب التى سرعان ما أشبعتها لهم بريطانيا وأمريكا .

وتناثرت التقارير عن الفظائع والأهوال التى يرتكبها الشيوعيون وأوخم التهديدات باسوأ العواقب التى ينتظر حدوثها من الزعماء الثوريين ، وشهد « كار » كيف أن نسيج وطنه الذى اختاره لنفسه يتفكك ، وآمن بتحذيرات المستر تشرشل ضد التهديد الشيوعى ، ومن هنا ارتبط مصيره بمصير المستر ونستون تشرشل .

وفى لندن ، تجاهل وزير الحربية الجديد مراوغات رئيس الوزراء وشن حروبه الصليبية لتدمير البلاشفة ، أما الميجور جنرال هـ . ح . هولمان ، قائد البعثة البريطانية إلى جيش « دينيكين » فقد تلقى توجيهات محددة من تشرشل بأن غرض التدخل هو تدمير الثورة ، وأصدر تشرشل أوامره بإرسال تعزيزات عسكرية فورية بحراً إلى « كريميا » لمساندة قوات « دينكين » .

وبمجرد وصولهم ، أبحر سرب بحرى من البوارج والسفن تحت إمرة الأدميرال السير « والتر كوان » إلى البحر البلطى ، وفى مجلس الوزراء قال وزير الخارجية « أرثر بلفورد » على نحو حازم بأن الالتزام الأخلاقى لبريطانيا يمنع البلاد من التخلى عن الروس الموالين لقضية الحلفاء وهم يقومون أيضاً حالياً بالقتال دفاعاً عن أرواحهم .

وقال آرثر بلفورد : لقد كنت أزاول الضغط على البحرية وقتاً من الزمن من أجل القيام باستعراض للقوة فى البحر البلطى من أجل تقوية وتعزيز سكان هذا الجزء من العالم ضد البلشفية .

وكانت أوامر الأدميرال « كوان » التى وضعت بريطانيا بالفعل فى حالة حرب مع روسيا ، استهدفت حصار الأسطول الروسى فى « كرونستاد » وفى أثناء مارسته لأعماله اعترض كوان « هجوما بحريا سوفيتيا » فى ميناء « تالينين » الواقع فى أستونيا والقوات الفنلندية أثناء تسللهم خلف خطوط البلاشفة ، وهبطت القوات البريطانية فى « لاتفيا » لتأمين استقلال الأمة .

كما قامت هذه القوات بحماية الجنرال السير « هيربرت جوف » وبعثته العسكرية التى تنتمى إلى جيوش الحلفاء فى فنلندا ، وكانت تستهدف تنظيم الروس البيض تحت

قيادة الجنرال « نينكولاى يو دينتش » الـذين كانوا يخططون من أجل عبور الخليج إلى فنلندا أو أسر القديس بطرس .

وتلقى « جوف تعليمات قبيل مغـادرته لندن بعـدم التدخل فى الشئون الـروسية ، غير أن هذه التعليمات تناقضت مع أوامر ونستون تشرشـل وزير الحربية الذى طالب وهو أمام الخريطـة الضخمة التى تبين جيوش الروس المتجهة صوب مـوسكو ، طالب الجنود بالاسراع فى تحقيق انتصارهم ، فكان أن اتبع « جوف » تعليمات وأوامر تشرشل غير أنـه لـدى وصـولـه واجهتـه صعـاب جمة ، حيث رفضت الحكـومـات الجديـدة لجمهوريات البحر البلطى أن تساعـد الحرب الصليبية للحلفاء ضد البلشفية ، خشيت ان تعرض للمخـاطرة اعتراف لينين باستقـلالهم وهو الأمـر الذى اكتسبوه بعـد عناء ، ولقد كان الجنرال هذا شأنه شأن معظم القيـاصرة كان رجعياً وأكثر استعداداً للتعاون مع الجيوش الألمانية التى يقـودها النازيون المتـزمتون الذين كانوا لايـزالون يحتلون الدول الواقعة على البحر البلطى .

وفى شتاء عام ١٩١٩ ، تعرضت معركة روسيا إلى الوصول إلى طريق مسدود ، غير ان الاتجاهات السياسية كانت متشـددة ، إذ كان أولئك القوم فى الكريملن على يقين من أن الحكومة البريطانية وجهاز المخابرات السرية البريطانى مصممين على إزالتهم بالقوة وكانت نظـرة واقعية إذا ماتـدبرنا الخطـاب الذى أفضى به الأميرال « هـول » إلى كبار المعاونين العسكريين عشية تقاعده كمدير للمخابرات البحرية حيث قال :

وأريد أن أحـذركم ، لقد كانت المعـركة صعبة ومـريرة ويتعين علينا الآن مـواجهة الخوف ، وعـدواً لامثيل له فى الصرامـة والشدة ، عـدواً متـوحشاً سـوف تنتشر قوتـه الشريرة حول العالم أجمع ، إن هذا العدو هو روسيا السوفيتية .

أما تشرشل وخـوفه المرضى من روسيـا وقناعته بأن العمليـات الخاصة إنما هى أسلوب من أساليب الحرب العسكرية والسياسية الملائمة لبريطانيا خاصة ، فقد شجع السير « مانسفيلد كامينيجز » على الخوض فى المخاطر من أجل احداث وفاة لينين .

وفى عام ١٩١٩ ، كان « بول ديوكس » أحـد الذين حلوا محل « ريللى » فى روسيا ، وتسللوا إلى روسيا البلشفيـة عن طريق « ميرمانسك » فى عام ١٩١٨ كان تـواقاً للهرب والفرار .

واستطاع « ديوكس » تهريب معلومـات إلى لندن عبر هيلسنكى ، وكان متخفياً علي

طوال العشرة أشهر الماضين علي ذلك ، فى زى جندى بالجيش الأحمر أو حتى عميل للـ « تشيكا » ، غير أن تخفي المستر « ديوكس » تعرض للهتك وصار هدفا للقناصة من جهاز مخابرات الـ « تشيكا » الذين حاولوا اصطياده .

وفى أثناء الأشهر التى كان فيها « كامينجز » يرسو فى أحد الموانى الفنلندية قبالة قاعدة « كونستاد » البحرية اتصل الكابتن « اوجست اجار » على توربيد من سرب « كوان » وأغرق بنجاح الطراد الروسى « اوليغ » ، ابتهاجاً بشجاعته وإتقانه تنفيذ العملية شن « كوان » عملية مركبة من القاذفات البريطانية ، وأسطول صغير من الزوارق البحرية الساحلية ضد الأسطول الروسى فى الميناء .

أما الخسائر الروسية فقد انحصرت فى سفينتين حربيتين غرقتا ، وتدمير وتحطيم الغواصات واستمرار القوات الروسية على القيام بتمرد مسلح ضد البلاشفة ، مما أدى إلى حدوث المخاوف المتجددة فى موسكو واكتساب امتداح تشرشل وإشادته بالانتصارات .

ولدى عودتهم المنفصلة إلى بريطانيا ، تم استقبال كل من « اجار » و « ديوكس » استقبال الأبطال ، واستقبل الملك جورج الخامس كلاً منهما ، وتناول « ديوكس » الغداء مع تشرشل وأنعم عليه فيما بعد برتبة فارس ، فى حين أن « آجار » حصل على نيشان « صليب فيكتوريا » وهو وسام بريطانى لأبطال الحرب ، إلا أن انتصارهم لم يدم طويلاً حيث أن الثورة المضادة بدأت فى صيف عام ١٩١٩ فى الزوال .

وعانى « يودينتش » من سوء الإدارة المتفشى ونقصان العون البريطانى وانتهى هجومه القادم من فنلندا عن طريق التسلل خلال أحراش « بتروجراد » انتهى نهاية دموية وهزيمة نكراء ، وفى سيبيريا انتهى التقدم الزاحف للروس البيض جنوب موسكو ، على الرغم من المساندة الأمريكية واليابانية والتشيكية نهاية مأسوية ، كتب اللورد هاردينيج فى مضبطة وزارة الخارجية يصف هذه الهزيمة بأنها « مشروع غير ذى مصداقية على الإطلاق » وتواكب ذلك مع الانسحاب البريطانى والأمريكى لآخر قواتهم هناك ، وفى الجنوب فشل كذلك زحف جيش الجنرال « دينيكين » وتوقف فجأة ، وخارت قوى جيشه بسبب الفساد الضارب فى صفوف قواته وتفشى الخلافات والمشكلات الداخلية ، وسرعان ما تراجع جيشه إلى الوراء .

وفى الشمال تمردت قوات جيش « إيرونسايد » وانضم الكثير من الروس إلى

البلاشفة ، وتم تكليف المستر « كار » للقيام بالترجمة للجنة التى تولت التحقيق فى اغتيال الضباط البريطانيين ، وصدر أمر الجنرال بالانسحاب يوم ٢٧ سبتمبر وانتهت جميع خطط الحلفاء للإطاحة بنظام البلاشفة نهاية مشينة ، وأنفقت بريطانيا مايزيد عن اللازم فى حروبها الصليبية ضد البلاشفة وبأكثر مما فعل سائر الحلفاء مجتمعين .

وهكذا فإن الفضل فى ضمانة استقلال دول البحر البلطى وفنلندا إلى لويد جورج ، فضلا عن فضله فى إيجاد الفرصة المناسبة لاستقلال القوميات الروسية . أما ونستون تشرشل فقد كانت فلسفته هى أن الدول الكبرى فى أوروبا سوف تندم بسبب فشلها فى سحق الهلاك البلشفى فى مركزه وقبيل نموه نمواً ضخماً .

وكان كل من ضباط وزارة الخارجية البريطانية والجنرالات الذين عادوا من روسيا متفقين على أن الوحشية والاستبداد والشمولية التى اتصف بها ملامح الجنرالات الروس البيض الذين حاربوهم « لم تكن تختلف عن البلاشفة فى شىء » .

وفى خريف عام ١٩٢٠ ، سقط ١٥٠,٠٠٠ روسى أبيض ، هم بقايا جيش « دينيكين » سقطوا فريسة للأمراض والفوضى ، وتم إجلاؤهم بمساعدة البريطانيين إلى شبه جزيرة « غاليبولى » .

وسرعان ماتفرقوا فى شتى البلاد وأنحاء الأرض ، حيث صاروا مطلباً لأجهزة المخابرات الغربية ليصبحوا عملاء فى المعركة المستمرة من أجل تقويض النظام الشيوعى الحاكم .

وكان من بين هؤلاء البريطانيين الذين تم إجلاؤهم مع جيش « ايرونساید » المستر « كار » وعائلته . وكان المستر « كار » يشترك مع آلاف المعجبين بالشعب الروسى ، فى أنه تعرض للتجريح والأذى النفسى بسبب الفوضى الضاربة التى تسببت فيها الثورة الحمراء ، إذ كانت شخصيته تتصف بالمحافظة وشدة الحساسية .

وبمرور الوقت ، دمر جيش « إيرونساید » عتاده ومعداته وألغى مهمته وتخلى عن أهدافه ، أما المستر « كار » فقد كان قد استقر على خوفه البالغ ومقته واشمئزازه من حمامات الدم والفوضى التى تسببها البلاشفة .

وكان « كار » يضمر فضلاً عن ذلك الشعور بالظلم الفادح فى داخليات نفسه ، ذلك

أن جميع مدخرات عائلته المودعة فى أحد البنوك الروسية تعرضت للضياع ، أما أبوه فقد تعرض للبطالة والفقر .

وكان طبيعيا أن ينجذب « كار » إلى السير فى مسار من شأنه أن يوفر له فرصة تسوية الحسابات والهروب من البطالة . وجعل يتعلم الكتابة على الآلة الكاتبة والاختزال ، وهى أمور تدل على ذكائه وقدراته . وبدت الفرص أمام طموحاته محدودة حتى تقابل والده مصادفة فى أحد النوادى مع « جورج ويسكيمان » نائب القنصل البريطانى السابق فى « أرشانجبل » . وتساءل « ويسكيمان » عن عمل الشاب « كار » واقترح أن يصبح مترجماً فى القنصلية البريطانية فى « هلسنكى » .

وتم استدعاء « كار » لمقابلة فى « تشارنج كروس » أحد الحوانيت وتقابل هناك مع « ريلى لى ماى » الذى قدمه إلى القائد إرنست بوليس . وتركزت محادثتهم فى مؤخرة الحانوت حول الخلفية التى يتمتع بها واللغات التى يتقنها . وغادر « كار » المكان بدون أية فكرة أو ظن فى أن « بوليس » كان ممثلاً لجهاز المخابرات البريطانية السرية فى روسيا أثناء الحرب .

وظل على جهله حتى عند مقابلته مع « مانسفيلد كامينج » فى شقة المستر «سى » فى حى « وايت هول كورت » بالقرب من وزارة الحربية . ولم يثنِ العرض المالى البخس « كار » عن رغبته فى العمل ، إذ عرض عليه رئيس جهازالمخابرات البريطانية السرية دخلاً محدوداً قوامه ٥٠٠ جنيه استرلينى سنوياً ترتفع إلى ٧٥٠ جنيهاً فيما بعد .. ويقول « كار » بعد السابعة والستين إنه بعد بضعة أيام من عمله فى ترجمة تقارير العملاء خلف غرفة الرقابة على جوازات السفر فى هلسنكى ، تعرف على الطبيعة الحقيقية لواجبات عمله .

وكان « كار » شأنه شأن معظم ضباط المخابرات السرية البريطانية يعتبر أن المكاسب المادية غير ضرورية . وكان يستحثهم الدافع والشعور بواجب الخدمة التى قد تجعل منهم أسطورة فى حياتهم المعاشة .

وبعد أشهر قلائل من تعيينه ، تكشف عدم استقرار حالته العملية حينما شهد المستر « كامينج » يتصرف تصرفات شديدة القسوة ضد المستر « ثيرنون كيل » ، رئيس جهاز الـ « ام اى ه » أو (جهاز المخابرات العسكرية للأمن القومى البريطانى) . فكان

ذلك رمزاً لكفاح جهاز المخابرات السرية البريطانية للبقاء فى ظل ميزانية تم تخفيضها إلى النصف ضغطاً للإنفاق .

ولما أصبح « ريللى » ، و « بروس لوكهارت » و « ديوكس » خارج روسيا ، يجمعون المعلومات الاستخبارية حول البلاشفة ، تحولت المهام التجسسية إلى أمر بالغ الخطورة والهلاك .

فقد كان الأجانب تحت الرقابة المستديمة وحتى فرص الدبلوماسيين فى العمل الاستخبارى صارت مقيدة فى أعقاب إغلاق القنصليات فى « لينينجراد » و « أوديسا » من جانب الحكومة السوفيتية .ولهذا السبب ، سعى « كامينج » إلى الحصول على حلفاء مدينة « أوديسا » المطلة على البحر الأسود ، لإقامة القواعد للعملاء .

وكان وضع هؤلاء الموظفين يعتمد على الاتفاق مع وزارة الخارجية التى كان كبار مسئوليها معادين أشد العداء لسوء استخدام الغطاء الدبلوماسى . وذهبوا إلى أن الجواسيس سوف يؤثرون على سلامة العمل الذى يقوم به الدبلوماسيون وسوف يضر بهم أشد الضرر .

فكان الحل هو إقامة مكتب رقابة على جوازات السفر داخل وزارة الخارجيةيتمتع موظفوه ليس بالحالة أو الوضع الدبلوماسى ولا المنافع التى تدفعها الحكومة للدبلوماسين من رواتب عالية أو معاشات . ويتم إلحاق أعضاء جهاز المخابرات السرية البريطانية إلى هيئة خاصة نظام نظم مختلفة ، كما تقرر أن يتم الدفع لهم نقداً لتجنب أية تحريات حول طبيعة عملهم ، كما تقرر أن يتسامح معهم السفيرطالما أنهم قصروا أنشطتهم على نحو خاص على الحوادث الجارية فى الدول المجاورة .

وعلى الرغم من أن منافسات « وايت هول » لم تؤثر على المستر « كار » إلا أنه كانت ضمن الضباط المجندين فى عام ١٩١٩ ـ ١٩٢٠ دفعة من الشباب المتفتحين الذين شبوا عن الطوق فى روسيا وامتلكوا ناحية الفهم لتلك الدولة وشعبها الذين وثقوا فى مدى تقدمى المهنى . وصاروا معتنقين وجهة نظر تشرشل فى أن الامبراطورية البريطانية صارت عرضة للهلاك مالم يتم هزيمة الشيوعية . وكان حلفاؤهم الوحيدون هم الروس البيض ضد البلاشفة .

وكان مدين أكثر هؤلاء المهاجرين أهمية أولئك الذين وافق كاننح عن تمويلهم ، بناء على نصيحة « ريللى » وصار المستر « بوريس سافينكوف » يقودهم ، وهو سفاح

معادى للشيوعية متشدد بطبيعته ومتآمر محترف ، ولقد وصفه تشرشل بكلمات مؤثرة عقب اجتماع به رتبه المستر « ريللى » فى عام ١٩٢٢ .

ووصفه قائلاً : (وفى هذه الحالة ، ليس ثمة شىء أو إنسان يخشاه أو يخافه ..) . أما المستر « ريللى » فيقول : « إن سافينكوف كان رجلاً ضمن اثنين أو ثلاثة لم يستطع البلاشفة النوم ملء جفونهم طوال حياته . وأرسل سافينكوف بالعملاء عبر الحدود الفنلندية والبولندية إلى داخل روسيا من أجل تنظيم الخلايا الاستخبارية ثم العودة مزودين بالمعلومات .

أما القائد « بوليس » فقد كان ضابط اتصالات المخابرات السرية البريطانية وعمل مع « سافينكوف » وكان « بوليس » هذا هو الذى قام بتجنيد « كار » أول مرة وفى أعقاب كارثة ١٩٢٠ ، قسم « بوليس » هذا هو الذى قام بتجنيد « كار » أول مرة . وفى أعقاب كارثة ١٩٢٠ ، قسم « بوليس » وقته بين « تالين » و « باريس » من أجل الحفاظ على الصلات مع الروس البيض ، ولكن فى عام ١٩٢١ ، تم نقله إلى هلسنكى حيث إن أهمية فنلندا أمة مستقلة منذ عام ١٩١٧ ، حينما استفادت الميزة من ثورة أكتوبر ووضعت الخاتمة لقرن من الاحتلال الروسى . وتسبب إعلان الاستقلال الفنلندى فى إحداث حرب أهلية قصيرة ولكنها قاسية وانتهت بالهزيمة لأنصار البلاشفة على أيدى المارشال « كارفون ماينوهايم » الذى سرعان ما دفع بأعداء البلاشفة إلى استخدام الدولة من أجل شن غارات ضد الثوار .

وبرغم التخفيض الحادث فى ميزانية المخابرات السرية البريطانية ، إلا أن محطة هلسنكى قد حظيت بمخصصات قدرها ٢٠,٠٠٠ جنيه استرلينى سنوياً من أجل العمليات، فضلاً عن تعيين مساعد لضابط مراقبة جوازات السفر وهو المستر هارى كار .

وفى مارس ١٩٢١ ، كان المستر كار فى صميم وقلب المحاولات البريطانية للإطاحة بالبلاشفة وأوشك على تبوء أعلى المراكز التى يهفو إليها قلب كل ضابط مخابرات .

وتزامن تعيين المستر كار مع توقيع اتفاقية تجارة بين الحكومتين البريطانية والسوفيتية ، وكانت بذلك أول اعتراف بريطانى رسمى بدولة البلاشفة . وعلى الرغم من أن الاتفاقية احتوت على تعهد من جانب الحكومتين بالتوقف عن ممارسة أنشطة الاستخبارات المعادية ، إلا أن هذا النص وذلك البند تم تجاهله .

ونجد أن كلاً من وزارة الحربية والادميرالية (البحرية) قد وصفتا الهجوم الروسى بأنه أكثر التهديدات خطورة ضد بريطانيا ، وبأنه ربما كان أكثر الأسباب وجاهة فى اندلاع الحرب فى المستقبل القريب حيث سوف تتورط الإمبراطورية البريطانية .

وفى هذه الظروف كانت المخابرات البريطانية السرية غير مستعدة للتقيد بالاتفاق إلا أن الجهاز الاستخبارى تعرض للشلل والتعويق بسبب نقصان المعلومات والافتضاح الشديد لعمليتين قامت بهما المخابرات البريطانية ضد السوفيت .

وبعد فترة وجيزة من توقيع الدول المطلة على البحر البلطى على معاهدات السلام مع ممثلى لينين عام ١٩٢٠ والتى تم الاعتراف بمقتضاها بسيادتها على أراضيها ، حصلت المخابرات السرية البريطانية على تسهيلات فى « ريجا » غير بعيد من السفارة الضخمة الواقعة فى « رينيس بوليفارد » .

وفى جو قوامه الأمن النسبى استطاع عدد كبير وأجيال كثيرة من ضباط المراقبة على جوازات السفر والملحقون العسكريون ، استطاع كل هؤلاء مع لاجئى الروس البيض ، وعاونهم فى ذلك خير العون البوليس والعسكرية التابعة لجمهورية لاتفيا ، ضد الشيوعيين عبر الحدود .

وأضحت السفارة البريطانية مقراً معروفاً لجمع المعلومات وقاعدة للضباط البريطانيين لتعلم اللغة الروسية . ويقول « لينسى نيكولون » :إن المدينة كانت بمثابة المرتع الخصب للتآمر والجريمة ... وملاذ عشرات العملاء منعدمى الضمير الذين ينتمون إلى كافة القوميات والذين بمقدورهم بيع خدماتهم ومعلوماتهم الاستخبارية لمن يدفع المال الأكثر بدون أدنى ندم أو وخز ضمير ، ثم إعادة بيعها إلى الطرف المعادى وبسعر أعلى .

وتم تأسيس شبكة مماثلة فى « تالين » وقام بذلك الكولونيل روبرت ميكليجون ، وهو ضابط سابق فى الفيلق الملكى البريطانى ، وكان قد خدم فى جيش التدخل وفى عام ١٩٢١ ، جند ميكليجون رجلاً ألمانيا كعميل وكان يدعى « جريجورى » زعم أنه يستطيع الاطلاع على الأكواد السرية فى السفارة السوفيتية ، وكانت آنذاك تحت سيطرة وإمرة ـ كيم ليتفينوف .

أرسل ميكليجون حوالى ٢٠٠ برقية من أكواد ليتفينوف إلى لندن اتضح منها أنه

على النقيض من نصوص وبنود اتفاقية التجارة ، كان السوفيت يمولون « سين فين » فى أيرلندا ومثيرى الشغب المعادين للإمبريالية فى الهند . وسرعان ما تأكدت الحكومة البريطانية من صحة المعلومات عن طريق مشاهدتها للقلاقل التى وقعت هناك وأرادت الحكومة البريطانية التثبت قبل أن ترسل الحكومة باحتجاج ، فوجدت أن المعلومات والبرقيات التى قدمها ميكليجون مزورة .

وأدى هذا الاكتشاف إلى تكثيف الضغط على المستر « كامينج » لإنتاج المزيد من المعلومات الاستخبارية مقتنعة أنها لاتزال موجودة لإثبات أن السوفيت كانوا فى حقيقة الأمر ينظمون ويملون عدداً متزايداً من المشاغبين ومثيرى القلاقل المعادين للبريطانيين ، وبخاصة فى الهند .

وتلقى كامينج من عميل المخابرات السرية البريطانية فى برلين نسخة من وثيقة سرقت من مكتب الممثل السوفيتى أكدت على وجود مؤامرة سوفيتية لزعزعة استقرار الحكم البريطانى فى شبه القارة الهندية . وعلى الفور ، بناء على أوامر وزارة الخارجية البريطانية قدم الممثل البريطانى فى موسكو الدليل المدين ووثيقة الإدانة وقدم احتجاجاً شديداً للمسئولين السوفيت .

وقدم السوفيت الرد بسرعة مساوية وبصورة مؤثرة . وأثبت الروس أن الوثيقة ما هى إلا أوراق الدعاية الروسية البيضاء الموزعة فى ألمانيا . وفى تلك اللحظة ذاتها ، قدم مصدر قوى جديد نفسه وأعرب عن استعداده لتقديم المعلومات لجهاز المخابرات السرية البريطانية . ووصل « الكسندر ياكوشيف » ، وهو مهندس رى وصل إلى « تالين » قادماً من موسكو . وكان معروفا للروس البيض كعنصر تنفيذى لمجموعة سرية تعمل من تحت الأرض وتنادى بعودة الحكم القيصرى إلى البلاد .

وسافر من « تالين » إلى « برلين » و « باريس » واقترب بحذر من زعماء مهاجرى الروس البيض وشرح لهم كيف أن الاساس قد أقيم عبر الحدود فى روسيا من أجل إنشاء منظمة مناهضة للشيوعية لتدمير « قوى الظلم » .

وأوضح أن « هيئة الائتمان المحلى فى موسكو » ماهى إلا بنك جديد ثم أسسه الشيوعيون للأعمال الدولية ، والأمر غير معروف للبلاشفة هو أن الملكين من أنصار القياصرة الذين كانوا يستخدمون الاسم المستعار « ترست » كانوا بالفعل قد اخترقوا

البنك . وبرغم أن بعض الزعماء المهاجرين كانوا شكاكين وارتابوا فى « ياكوشنب » إلا أن الاخرين شجعتهم تقاريره الخاصة بالمقاومة .

وتزايد إعجابهم بالعميل الجديد حيثما شاهدوا السر الذى يستطيع به السفر عبر الحدود جالباً المعلومات والرسائل بأن البلشفية تكافح من أجل البقاء . ولما تواصل التدفق المعلوماتى ، تحقق المهاجرون أيضا من قضية استغلال هذا الرجل الجديد من أجل إنشاء وإقامة مركز سياسى أقوى .

وتم تقديم إنتاج الشبكة إلى جهاز المخابرات البريطانية السرية ووكالات المخابرات الغربية الأخرى . لقد كانت لحظة حظ وسعادة .

أما وقد تعرضت المصادر الخاصة بجهاز المخابرات السرية البريطانية ، فقد صار « كامينج » منجذباً صوب الفرص المغرية التى عرضها « ياكوشيف » . وكان فريق يطالب بتوخى الحذر ، وكانوا على يقين من أن أجهزة الاستخبارات البولندية والفرنسية والفنلندية جميعها قبلت مصداقية « ترست » وصارت « ترست » هذه المصدر الخصوصى للغرب لتزويده بالمعلومات الاستخبارية الموثوق فيها حول الأحوال داخل روسيا ، وهو أمر طرحه الروس البيض وأكده « بويس » .

على أية حال فإن « باكوشيف » الذى كان مجهولاً لدى أهل المنفى ، تم إلقاء القبض عليه ، قبل أشهر من وصوله إلى « تالينين » وزجوا به فى السجن فى « لوبيانكا » ولم يتم إطلاق سراحه إلا بعد أن يقنع « دزرزنيسكى » بمهارة أن يقنع المهندس ليصبح عميلاً من البلاشفة . وكان « دزرزنيسكى » يسعى إلى اختراق المنظمات الروسية البيضاء التى كانت تتآمر للقيام بثورة مضادة فى الغرب .

وبالنسبة إلى المكتب السياسى السوفيتى ، بدا ميون روسى فى المنفى ، وبخاصة البقايا المنظمة التابعة لجيش « دينيكين » تمثل تهديداً محتملاً . وكانت أسباب وجيهة تثير مخاوف القيصر من أن هؤلاء القوم الذين يعيشون فيما وراء الحدود يدبرون عمليات التخريب وإثارة الفوضى داخل روسيا .كتب « ف . تريانداڤيلوف » ، أحد كبار مسئولى جهاز مخابرات الـ « تشيكا » عام ١٩٢٢ يقول : « إننا بصدد مراقبة روسيا الثانية هذه » . وكانت تكتيكات الـ « تشيكا » مماثلة لتلك التكتيكات الخاصة بجهاز مخابرات « أخرانا » الذى كان يعمل فى عهد القيصر . والشخص الذى أسس البنك ومؤسسة « ترست » هو « فيليكى دزرزنيسكى » من أجل اختراق جماعات المنفى .

كان الهدف الرئيسى للمستر « ياكوشيف » هـو « بوريس سافينكوف » الذى كان قد دعم « البارون بيوتر رانجيـل » ، وانضوى تحت لوائها ١٥,٠٠٠ ـ ٢٠,٠٠٠ رجل ، وقادها الجنرال « اليكسندر كوتيبيوف » . وأخـذ « لويتبيوف » يدرب المهاجرين صغار السن للعمل العسكـرى ضـــد الشيوعين والأنشطـة السريـة داخل روسيا . وفى أثنـاء ١٩٢٣ ، تقابل « ياكوشيف » بصورة دورية مـع « كويتيبوف » ، وأقنع المهاجر بأهمية مصادر « تـرست » وطور تدريجيـاً علاقات جيـدة ووطيدة مع بوريس سـافينكوف . وبحلول عام ١٩٢٤ ، حينما أصبح الـــ « ترست » المصدر الرئيسى لجهـاز المخابرات السرية البريطـانية لاستقصاء المعلـومات ، تلقى « سـافينكوف » سلسلة من الـرسائل نتيجة لاتصالاته داخل روسيا قالت بأن الأحوال صارت مثالية للانقلاب المضـاد ، وأن الـ « ترست » استطاع حشد شبكة مسلحة وذات نفوذ ضد البلاشفة .

وقبل « سافينكوف » الدعوة بعد اجتماعه مع « بويس » وارتحل مع « ياكوشيف » إلى الحدود السوفيتيـة . وبعد العبـور ، سرعان مـا تم إلقاء القبض عليـه . كما وصلت أخبـار القبض عليه واعترافـاته بـالتجسس أمام محكمـة صوريـة إلى الغرب سريعـاً . ونظمت السلطات المقابلات الصحفية معه للصحفين القادمين من أوروبا الغربية إلا أن ظـروف القبض عليـه لم يتم الكشف عنهـا . وبعـد ستـة أشهـر من محاكمتـه ، أعلن السوفيت عن انتحاره فى سجن « لوبيانكا » .

عصفت الأخبار السيئة بـ « سيدنى ريللى » إذ كان قد باع بنجاح لجهاز المخابرات البريطـانية فى العـام الماضى رسـالة كتبهـا على مـاقيل « جريجورى زينـوفيف » ، إلى أعضاء الحزب للإعداد من أجل الثورة ضد الحكـومة البريطانية . وتأكد المستر كامينج من صدق وحقيقـة الرسالـة ، وكذلك وزارة الخارجية ورئيس الـوزراء الذى ينتمى إلى حزب العمـل البريطانى ، ثم تم نشر الـرسالـة فى صحيفة الـ « ديلى ميـل » مما أدى إلى اكتساح حزب المحافظين الانتخابات وصلوا إلى الحكم اعتماداً على العداء المستحكم ضد الشيوعين .

وفى حقيقة الأمـر ، كان الخطـاب مزوراً وأكد القنـاعة السـوفيتية بأن المخـابرات السرية البريطانية وراء هذه الخيانة . وسحقت نشاطات « ريللى » حينما عرف بالقبض على سافينكوف واعترافاته . وشن بعـد ذلك كبير رجال الجاسوسية « ريللى » على مدار

سبعة أعوام ، شن حرباً ضارية وخطيرة ويبدو أنها كانت غير ذات جدوى ضد الشيوعيين ، مما أدى إلى استنفاد واستنزاف الثروة استنزافاً مخزيا .

وفى أوائل عام ١٩٢٥ كتب « بوليس » يقترح أن يضطلع بعملية أخرى داخل روسيا ، فكان « ريللى » آنذاك متردداً على نحو غيرمحدد فلم يرد . وأخيراً سافر إلى فرنسا فى أعقاب العديد من التوسلات والتضرعات لمقابلة « بوليس » .

وكشف رجال المخابرات السرية البريطانية بعضاً من المعلومات التى شكلت مصدراً للتعذيب ، وكانت تستحق مع ذلك التحرى بشأنها ومصداقيتها وكانت تتعلق بوجود عداء دموى فى الكريملين عشية وفاة « لينين » .

وعلى الرغم من أسر « سافينكوف » إلا أن « بوليس » أخبر « ريللى » بقناعته أن « ترست » بمثابة « الحركة ذات القوة والنفوذ الهائل داخل روسيا » وكان يريد التيقن إذا كانت المنظمة لاتزال موضع اعتماد ام لا . وحث « بوليس » المستر « ريللى » للقيام باتصالاته المبدئية مع ممثلى « ترست » فى هيلسنكى مستخدما المساعدات والجهود الطيبة التى قام بها مساعده الجديد ، السيد « هارى كار » .

وفى ٢١ سبتمبر ١٩٢٥ ، وصل « ريللى » إلى هلسنكى واجتمع مع « احد الشباب الأذكياء جداً الغيورين على مصلحة العمل » ، وهو الذى قدمه إلى « نيكولاى بوناكوف » ممثلاً عن « الترست » .

وبعد ذلك بأيام ، تبددت أية شكوك كان من المحتمل أن تساور المستر « ريللى » . وكتب ذلك الجاسوس رسالة إلى زوجته قال فيها : « ثمة شىء جديد للغاية وفى منتهى القوة ويستحق التنبه إليه يحدث الآن فى روسيا ، واختتم الرسالة قائلاً : إننى بصدد المغادرة اليوم ، إذ ليس هناك أدنى خطر على الإطلاق .

وبعد توديعه المستر « كار » سافر إلى الحدود السوفيتية لمقابلة مجموعة قدموا أنفسهم على أنهم روس بيض . ووصفت الجماعة التى كان يتزعمها « ياكوشيف » مدى القوة والنجاح الذى وصلت إليه « ترست » واقترحت سفر المستر « ريللى » لمدة ثلاثة أيام إلى موسكو لمناقشة الخطط مع زعماء « ترست » .

واختفى « ريللى » الذى كان يصاحبه بعض المرشدين ، عبر نهر « سيستوى » إلى داخل روسيا . وبعد ذلك بأسبوع ، كتبت صحيفة « إزفيستيا » تقاريراً صحفية عن اعتراض وموت ثلاثة عملاء على الحدود الروسية الفنلندية . وبعد ذلك بثلاثة أشهر ،

أعلنت صحيفة « التايمز » عن وفاة المستر « ريللى » .

ولقد كانت وفاة « ريللى » بالنسبة إلى المستر « سى » ، وجهاز المخابرات السرية البريطانية بمثابة المفجعة للعصر الذهبى للاستخبارات ، والأسوأ من ذلك أنه أفضى إلى تشويه سمعتهم وضياع مصداقيتهم فى كل من وزارتى الخارجية والحربية .

وبناء على الافتراض بان الـ « تشيكا » أو « او جى بى يو » (وهو الاسم الجديد للمخابرات الروسية الذى حل محل جهاز استخبارات « تشيكا »)عرفت من « ريللى » معلومات كافية من شأنها إفساد جميع عمليات المخابرات البريطانية فى روسيا ، ثم نقل المستر « بوليس » بسرعة إلى « تالينين » ثم تقاعد بدون توجيه الشكر له . أما خليفته فى « هيلسنكى » فقد عينه مستر « سى » الجديد .

وكان نجم المستر « كار » قد ارتفع فى عالم الجاسوسية عن طريق عمليات الغش التى كان يقوم بها ضد السوفيت . واستطاع السوفيت عن طريق جهاز مخابراتهم الجديد « أو ـ جى ـ بى ـ يو » أن يخترقوا عمليات جهاز المخابرات السرية البريطانية ليس فحسب داخل روسيا ولكن أيضاً فى جمهوريات البحر البلطى وفنلندا وفرنسا .

أما ثواب « دزرزنسكى » فقد تمثل فى المزيد من الاستخبارات ، ليس هذا فحسب ، بل وأيضاً المال . ذلك أن كثيراً من المال المدفوع الذى قدمته أجهزة المخابرات الغربية إلى « ترست » تم استخدامه فى تمويل الكثير من عمليات جهاز « أو ـ جى ـ بى ـ يو » الأخرى وكان الدرس القاسى الذى تعلمه « كار » هو أنه لم يضع ثقته فى أى مخلوق .

واستثار السوفيت الخوف ، وكانت أجهزة مخابراتهم فى حاجة إلى اكتساب الاحترام . وبالنسبة إلى « كار » كان الأمر يتطلب السرية ، كما أن ولعه بالسرية أدى إلى التسبب فى سلسلة من أعمال السخرية منه ، ذلك أن رفاقه وزملاءه جعلوا يسخرون من هذا التصرف . لكن « كار » ظل منيعاً حصيناً ضد بذاءاتهم .

كان الاعتماد على المهاجرين يكلف الكثير ، وأصبح المهاجرون ومن بعدهم جهاز المخابرات السرية البريطانية مهتمين وشغوفين إلى الاستماع إلى معلومات تؤكد رغباتهم ونزعاتهم ، ولكنهم جميعا سقطوا ضحايا حمقى لخداع الذات . وضاع الأمر وكذلك الدروس النافعة التى كان يتعين أن يفيدوا منها .

ولحقت السمعة السيئة جهاز المخابرات السرية البريطانية وقيل : إنه الهواة متفككك

ومشوش ، يفتقد إلى المقـدرة على تحليل المعلومات الاستخباريـة التى يتلقاها أو تحليل صدقها أو عدم تلاعب وخداع مصادرهـا . وهكذا فقد وقع على الجيل الجديد مهمة بناء الشبكات الجديـدة بناءً كاملاً ليكـون خاليا من أيـة صلات بالمصادر المطعـون فيها . وبذلك لم يكن يساور المستر « كار » الشك شأنه فى ذلك شأن ضباط المخابرات السرية البريطانية حول أهميتهم وخطورة شأنهم .

وكان بين أفراد خلية ضباط جهاز المخابرات البريطانية السرية المجندين مع المستر « كار » ، المستر « هارولد » والمستر « ارش جيبسون » وكلاهما صارا صديقين حميمين له . وأصبح « هارولد » رئيساً لمحطة فى بخاريست وبراغ وعهد له بتشغيل وإدارة أكثر الجواسيس نجاحاً داخل الاتحاد السوفيتى إبان زمن الحرب .

وعمل المستر « أرشى » فى المقر الـرئيسى لجهاز الاستخبـارات البريطانيـة السرية أولاً فى « وايتهـول كـورت » ثم بعد ذلك حينما تـم تحويله إلى « بـرودواى » فى سـانت جيمس . أما المجمـوعة الثـانية فهم الأخوة « سيليم » الـذين امتلكوا مصنعـاً للجعة فى استونيا ، على الحدود مع روسيا وفنلندا ، كما عمل فى « ريجا » .

والثالث هـو القائد « ويلفريـد دندرديل » المولود عـام ١٨٩٩ ، الذى اتخذ أولاً من القسطنطينية مقراً لـه ثم باريس واستطاع بـالتعاون مع أجهزة المخابـرات الغربية أن يقوم بأعمال كثيرة . وغذى من هذه المجموعة « كويكس سينكلير » الذى عرف عبر لندن بأنه رجل « معادى للبلاد عداء هائلاً » .

وفى كلمة ألقيت فى ٦ مايو ١٩٢٥ ، حدد ستالين بصراحـة بريطانيا على أنها الدولة المثيرة والمتسببـة فى التـدخل ، وأن امبراطـوريتهـا لاتـزال تحيط بـربع أراضى الكـرة الأرضية ، وأنها العدو الرئيسى والأول لروسيـا . غير أن « سنكلير » عانى من الإعاقة . وعلى الـرغم من أن رجـاله الـذين جنـدهم كـانـوا مخلصين ، إلا أن جهاز المخـابـرات البريطانية ، لم يستطع التفوق على أجهزة الاستخبارات الروسية العملاقة .

وفى عام ١٩٢٧ ، انفجرت ازمة جـديدة فى العلاقات الانجليزية السـوفيتية وكانت القضيـة هى تجديـد معاهـدة التجـارة ، وهى المعـاهدة التـى طالب معظم السـاسـة المحافظين بإلغائها . وكشفت المناقشات البرلمانية عـن تركة ثقيلة من الشكوك والريبة . وحدث عشية العثور على خطاب « زينوفيفا » الذى كانت مصداقيته لم تفقد بعد ، طالب الساسة البريطانيون بإيقاف العلاقات الثنائية عقاباً على التخريب الشيوعى .

وفى الكريملن اقتنع ستالين ومستشاروه من أن التوتر الناشب من الممكن أن يصبح مقدمة فحسب للتدخل الجديد أو حتى الحرب . وتضاعفت مصادر القلق كما حدث فى الأشهر الأولى من ذلك العام ، حيث شهد زيادة مفاجئة فى الأنشطة التى خططتها أجهزة الاستخبارات البريطانية .

وفى مايو ١٩٢٧ ، شنت « سكوتلاند يارد » غارة ضد « اركوس هاوس » فى لندن ، وهو مقر الوفد التجارى السوفيتى الذى حامت حوله الشكوك بأنه مركز التخريب الذى تنفذه أجهزة « او ـ جى ـ بى ـ يو » للاستخبارات السوفيتية . وفى وقت لاحق ، زعم المسئولون الروس أنهم رعايا لأعمال البحث والتحرى والاستقصاء الشخصية المهنية .

وردت الحكومة البريطانية بأن عمليات الاستخبارات الروسية كشفت عن الدولة المدينة وكيف أن الـ « كومنيترن » يتآمر لإحداث تشويه مستديم عبر أرجاء الامبراطورية . وبعد ذلك بتسعة عشر يوما ، قطعت الحكومة البريطانية رسمياً العلاقات ، وهو أمر شجع المخابرات السرية البريطانية على العودة إلى شن هجماتها وتنفيذ عملياتها .

وحدث فى نفس ذلك الأسبوع أن عبرت مجموعة من ستة رجال ونساء ، هم أعضاء فريق المكافحة التابع للمستر « كويتوف » عبرت بمساعدة المستر « كار » الحدود من فنلندا إلى روسيا . وانقسم الفريق الذى كان مسلحاً ومزوداً بالمتفجرات إلى مجموعتين شقتا طريقهما صوب موسكو ولينينجراد . وكانت نواياهم هى قتل المسئولين العاملين فى جهاز المخابرات الروسية المعروفة باسم « او ـ جى ـ بى ـ يو » بنفس روح التفاءول التى كانت محركاً للعمليات السابقة التى قامت بها أجهزة المخابرات السرية للدولة البريطانية .

وفى أعقاب زرع القنابل التى راح ضحيتها الكثير من أرواح العاملين فى الاستخبارات السوفيتية فضلاً عن المدنيين الأبرياء ، لقى ثلاثة عملاء مصرعهم فى كمائن غير أن البقية عادت .

وبعد ذلك بفترة وجيزة ، تم اغتيال السفير السوفيتى فى بولندا « بافل فويكوف » وهو أحد البلاشفة الذين تردد تورطهم فى اغتيال القيصر وعائلته ، وذلك أثناء تجوله فى أحد شوارع وارسو . واقتنعت مخابرات « او ـ جى ـ بى ـ يو » بأن البريطانين هم الذين

كانـوا يدبرون مـؤامرة أخرى معـادية للسوفيت وشنـوا مكيدة لأسر ما أسمـوه أفراد الطابور الخامس .

وقالت الصحف السـوفيتية أن حوالى مـائتى عميل بريطانى وبـولندى تم القبض عليهم وأن فريق أجهـزة المخابرات البريطـانية كـان يتفقد المنشآت العسكـرية فى دول البحر البلطى تـوقعاً لحدوث انفجار مـا . وفى الأسابيع الأولى من يونيـة ١٩٢٧ ، بدت شكوك الكريملن لها مايبررها للمرة الثانية .

وأرسل « كمويبـوف » أربعة فـرق أخرى من رجال حـروب العصابـات ، تشجعاً بـالنجـاحـات الأولى المتحققة ، أرسـل بهم عبر الحدود الفنلندية لاغتيـال المسئـولين الشيوعين . وبحلول شهـر أغسطس ، كان معظم المغيرين (أفراد الغارة) قـد تعرضوا إمـا للقتل أو الأسر . وأكدت السلطـات السـوفيتية فى مـوسكـو ـــ التى تولت سلسلـة المحاكمات ـــ أن هؤلاء الـرجال تلقوا المسـاعدات من أجهـزة الاستخبارات البريطـانية والبولندية .

وقال نائب رئيس مخابرات الـ « او ـ جى ـ بى ـ يو » ، فى أحد المؤتمرات الصحفية غير المعتـادة . إن هذه المؤامـرة وواضح أن ليس لها جـذور داخل اتحاد الجمهوريـات السوفيتيـة الاشتراكية ، وأضـاف الرفيق « يوجـودا » : « وإنما هى بمثابـة تنفيذ لتلك المهمـة التى تم تكليف المخـابرات البريطانيـة بها وكـذلك أنصـار القياصرة فى خـارج روسيا » .

وكان صوت « يوجودا » بمثابة التقييم المعقول لتصرفات أعداء الشيوعية ولم يكن صوتـاً يعبر عن جنون العظمة غير المتعقلـة . وأقنع الكريملن الحكـومة الفنلندية ـ فى محاولة منـه لإزالة التهديد ـــ بطرد ممثلى القوات الأجنبيـة من هلسنكى ، وشن عملية اختراق ثانية اتخذت من « الـ : ترست » كنموذج لها .

وتم اختطاف الجنرال « كويتبوف » بعد ذلك بعـامين فى باريس واختفى للأبد . أما خليفتـه الجنرال « يفجينى ميللـر » فقـد لقى نفس المصير بعد ذلك بعشرة أعـوام ، إن اختطاف « كويتبوف » عرض جهاز المخابرات السرية البريطانية للمرة الثانية للفشل فى الحصـول على معلـومات ذات جـودة وقيمـة داخل الكـريملن والجيش الأحمر ، وهى المعلومات التى كانت الحكومة البريطانية تتوقع الحصول عليها .

ولقـد حـرضت السفـارة البريطـانيـة فى « ريجا » جهـاز الاستخبـارات السريـة

لجمهورية لاتفيا ، أن تقدم خدماتها على نحو فعال لأجهزة الاستخبارات البريطانية السرية .

وتلقى « جون لوراتن » السكرتير الأول تقارير دورية من كبار المسئولين والقادة العسكريين ، إلا أن هذه التقارير فى جملتها التى قدمت إلى الساسة الشغوفين فى لندن فشلت فى شرح نوايا ستالين . أما سبب الفشل فهو الفكرة البائسة القائلة بأن جمع الاستخبارات والمعلومات يعتمد ببساطة على الاقتراب من الهدف أو يعتمد فى زمن الحرب على إرسال العملاء والزج بهم عبر الحدود .

ولما كان ليسلى نيكسون قد أرسل بمصادر مخابراتية بريطانية إلى « ريجا » بالقرب من روسيا ، فقد كان هذا أمر يبعث عن انتظار النتائج ، غير أن هذه المصادر لم تقدم سوى القليل عما يحدث من وقائع داخل الكريملن . وفى حقيقة الأمر ، على الرغم من أن نيكلسون قد سخر فيما بعد من هؤلاء العملاء ، إلا أنه ظل زبوناً مواظباً فى تلقى عروضهم .

ولم يتغير سوى القليل أثناء السنوات العشر التالية . ففى عام ١٩٣٧ ، عبر السفير البريطانى فى موسكو الذى كان قد منع المخابرات البريطانية السرية من تعيين ممثلا لها فى السفارة لأن هذا سيؤدى إلى الإضرار بمهمته ، عبر عن إحباطه لوزارة الخارجية البريطانية ، وقال حيث أن الروس لايجرءون على زيارة السفارة ، فإنه لم يتلق « أية معلومات وصارت أحوال البلاد أمراً غامضاً للغاية » .

وفى أكتوبر ١٩٣٨ أبلغ السفير مرة ثانية أنه من المستحيل الحصول على أية بادرة مما يتم مناقشته داخل أسوار (الكريملن) . أما محطة المخابرات البريطانية السرية فى « ريجا » فقد نجحت نجاحاً ضئيلاً فى ذلك . وفى عام ١٩٣٨ ، انضم إلى نيكلسون مساعد جديد لضباط مراقبة جوازات السفر وهو « كينبث بينتون » الذى نجا بأعجوبة من القبض عليه من جانب الجستابون الألمانى أو (البوليس السرى النازى) بسبب تجسسه فى فيينا .

وقال بينتون : إن تقارير رؤسائه إلى لندن التى جاء فيها أنه وزوجته قد انكشف أمرهما ، ماهى إلا تكرارات غير ذات قيمة عن القيل والقال والشائعات والمقالات الصحفية . وكان بينتون مدرساً سابقاً ، وكان يلقى باللائمة على نقص التدريب .

وكان كل من بينتون و « كار » قد تلقيا شأنهم فى ذلك شأن المجندين الاخرين

تعليمات روتينية وتعليماً غير كامل فى الاتصالات ، والاكواد والشفرة وغيرها إلا أن الأغلبية تعترف وتقر بأنهم تولوا أعمالهم ومناصبهم وهم لايزالون جهلة بحرفتهم والمهنة الخطرة التى يعملون فيها . وكتب نيكلسون يقول : « إن أحداً لم يعلمه كيف يصبح جاسوساً ، وعقد الاتصالات مع الخبراء والحصول على المعلومات منهم بدون أن يشعروا » وذلك بعد عودته من « ريجا » .

والحقيقة هى أن أولئك الذين ينتظرون تعلم هذه المهنة التى هى بمثابة الغريزة غالبا ما يكون مآلهم الإخفاق ، ويصبحون غير مناسبين للعمل فيها . بل فضلاً عن ذلك هى مهنة المخاطر حيث أن الاحتياطات الأساسية ربما يتم تجاهلها عند حد معين . وعندما تم إخلاء السفارة البريطانية عام ١٩٤٠ ، كشف الوكيل المسئول ذو الجنسية « اللاتفيه » المعروف باسم « تونى » كشف عن أن رؤساءه الحقيقين إنما هم كبار رجال الاستخبارات الألمانية .

وكانت هلسنكى قاعدة استثنائية لأجهزة المخابرات السرية البريطانية ووفرت للمستر « كار » الفرصة لبناء مجده وشهرته وسمعته . ذلك أن علاقاتها التاريخية مع روسيا واتساع رقعة حدودها المشتركة البالغة ألف ميل سمحت لأجهزة الاستخبارات التى تتخذ من فنلندا قاعدة لها أن تتمتع بالفرصة الفريدة فى اختراق جارتها السوفيتية .

وكان المصدر الرئيسى للسيد « كار » هو أجهزة المخابرات العسكرية الفنلندية ، التى كان ضباطها يتلقون التدريبات على مدار مايزيد على القرن من الزمان على أيدى الروس ، وهو أمر وفر البصيرة الضرورية وحسن النظر والتدبر فى الاستراتيجية الروسية . وكان من طبيعة المخابرات البريطانية وعملياتها التى اعتمدت على استعارة وشراء المعلومات من الدول المستضيفة والمجاورة وبخاصة الدول ذات الاهتمام بما يجرى فى روسيا ، وتكون لها المقدرة على قراءة الأحداث، الأمر الذى يجعل من مصادر معلوماتها الثقة والدقة والحدة اللازمة .

وبذل « كار » قصارى جهده لتطوير وتنمية التفاهم مع كل مصدر ممكن للاستخبارات فى هلسنكى عن طريق توطيد صلاته والفوز بالحظوة عند الفنلنديين العاملين فى أجهزة الاستخبارات العسكرية والعامة الفنلندية ، وبخاصة أولئك الذين كانت لديهم الاستعدادات الكافية للمساعدة والعون . ولقد أهله لذلك تحدثه الروسية

والسويدية بطلاقة وإتقان لعبة التنس وبخاصة استعراض التقاليد البريطانية العتيدة . ولقد كان الفنلنديون أعداء للسوفيت ومتعاطفين مع الألمان .

أما مساعد المستر « كار » واسمه « ريكس بوسلى » فقد كان يتحدث اللغة الفنلندية بطلاقة ، وهى إحدى أصعب لغات العالم قاطبة ، وصار صديقاً لمعظم الوزراء الحكوميين وعضواً فى الجماعات « الماسونية » الدولية مثل كبار قادة أركان الجيش والعسكرية الفنلندية .

كان « بوسلى » نقيضاً للمستر « كار » حيث كان « بوسلى » عياساً يحب الانطلاق وبهجة الحياة ويعشق الانغماس فى ملذات العيش .

وكان من بين العملاء السريين سلسلة متعاقبة من القوميات الأكرانية يتزعمهم « ستيفان ناتديرا » الذى أسس معه المستر « كار » علاقة قوية صارت زاداً له بعد ذلك فى أعقاب عام ١٩٤٥ .

وعلى خلاف « كار » لم يكن « بوسلى » يستطيع إخفاء نواياه . وكان عند تقديمه نفسه فى الحفلات ، يرفع من ياقته ، ويرشق الناس بنظراته ، ويخفض من صوته ، ويقول لمحدثيه : « لاتخبرن أحداً .. بأننى جاسوس خطير » . وكانت تلك تمثيلية محببة ، فصار يكررها وأضحى امتناعه عنها عسيراً عليه ، حتى أنه فى عام ١٩٦٤ ، حينما زار « خورشوف » النرويج قدم نفسه للزعيم السوفيتى على مائدة العشاء قائلاً : « يسعدنى تقديم نفسى إليكم .. أنا عضو فى أجهزة المخابرات السرية البريطانية » .

وجعل ثلاثتهم : المستر « كار » والمستر « بوسلى » وسكرتيرهما « إيلين داجيت » يفاخرون بأنهم كانوا المصدر الأكثر كفاءة لاستيفاء المخابرات البريطانية المعلومات منهم وبخاصة حول الاتحاد السوفيتى . وكانت هلسنكى أكثر محطات المخابرات البريطانية نجاحاً أثناء السنوات المفضية إلى اندلاع ونشوب الحرب العالمية الثانية ، وكانت بذلك تغنيهم عن إرسال سلسلة متعاقبة من العملاء غير المعتمد عليهم عبر الحدود لجمع معلومات قديمة من الفنلنديين .

وفى عام ١٩٣٩ ، فشل جهاز المخابرات البريطانى فى التنبوء بالكثير من الأزمات ، ليس أقلها توقيع « حلف مولتوف ــ ريبينتوف » فى موسكو فى ٢٣ أغسطس ، غير أنه بينما كان إخفاق مخابرات بريطانيا فى روسيا لايرجع إلى عدم المحاولة ، نجد أن الفشل فى ألمانيا نسب إلى النقاد الذين هاجموا الخوف المرضى من روسيا لدى أجهزة المخابرات

السرية البريطانية ، والخلافات الناشبة بين رؤساء أقسامها .

ولقد برهن توقيع المعاهدة الانجليزية الفرنسية مع هتلر فى ميونخ فى سبتمبر عام ١٩٣٨ بشأن استسلام تشيكوسلوفاكيا ، برهن للكثيرين على أن « تشمبرلين » سوف ينظر عند ظروف معينة فى تحالف غير مكتوب مع هتلر ضد البلاشفة .

وفى الأسابيع التالية لعودة رئيس الوزراء البريطانى إلى لندن مادحاً ومشيداً بجهوده الخاصة فى تأمين « السلام فى هذا الزمان » اقترحت الحكومة السوفيتية للبريطانيين والفرنسيين احتمال القيام بعقد اتفاقية مساندة وتدعيم مشتركة ضد الألمان . ولما كان هناك كم كبير من عدم الثقة فى النوايا الروسية ، نجد أن الإجابة كانت غير مشجعة .

واعتقد « تشمبرلين » بوضوح أن الاتفاق مع هتلر مقدم ومفضل على أى اتفاق مع ستالين . أكثر من هذا ، كانت الضغوط الممارسة من جانب موسكو لعقد مناقشات مفضية إلى اتفاق ، تتطلب استجابة رداً ، وأرسل تشمبرلين إلى روسيا بناء على المطالب السوفيتية الملحة ، بطريق عسكرى لعقد المفاوضات .

واقتنع تشمبرلين بأن ستالين كان يأمل فى نشوب حرب بين بريطانيا وألمانيا يخرج منها السوفيت سالمين ويبرزون كقوة ، فأرسل وفداً على مستوى منخفض التمثيل غير ذى تأثير ، سافر عن طريق البحر فى رحلة بحرية من أكثر الرحلات بطئاً وبدون أية سلطات تخولهم الاضطلاع بمناقشات جديدة .

ولما تدبر فى سياسات العلاقات الانجليزية السوفيتية على مدار السنوات العشرين الماضية ، استنتج ستالين أن البريطانيين لم يسلوا بعد اشتياقهم للإطاحة بالبلاشفة . ووردت تقارير دقيقة من أوروبا تصف زيارة دوق وندسور المبهجة السارة إلى هتلر وعقد المباحثات على مستوى عال بين « جوبرنج » والشخصيات البريطانية لصياغة اتفاقية مضادة للـ « كومينترن » .

وبالنسبة إلى ضباط المخابرات البريطانية ، الذين كانوا فى معظمهم يشاركون وجهة النظر التى قالت بها الحكومة من أن أكثر أعداء بريطانيا إنما هم الشيوعيون وليس النازيين ، وهكذا كان الحكم الذى توصل إليه ستالين صائباً . غير أن البريطانيين وأجهزة استخباراتهم أخطأوا حينما تجاهلوا مقدرة ستالين على أن يبرز ويفوق أعداءه ويبرم سياسة تأمين مع هتلر .

وفى أثناء عقد المفاوضات الروسية الألمانية فى الكريملن ، افترض وزير الخارجية الألمانى « فون ريبينروب » أن اعزاء ستالين بعقد وإبرام تحالف مع أعدائه الآخرين الألمان ، كان بمثابة الفرصة غير المتوقعة للاستيلاء على تلك الأراضى الواقعة بطول الحدود الروسية الغربية ، وهى التى تخلى عنها « لينين » فى معاهدة السلام الشهيرة المعروفة باسم « بريست ــ ليتوفسك » عام ١٩١٨ ، وتشمل تلك الأراضى كلاً من البلدان الآتية روسيا البيضاء « بيلوروسيا » وأكرانيا ودول البحر البلطى .

واقترح « فون روبينتوب » أن تعيد روسيا ضم معظم هذه الأراضى حالة اندلاع الحرب الألمانية مع بولندا .

أما المفاوضون البريطانيون الذين أخذوا نصب أعينهم التعهدات البريطانية على مدار العشرين عاما السابقة على حماية الاستقلال الجديد للدولة الواقعة على البحر البلطى ، فقد عرضوا فحسب إمكانية النفوذ السوفيتى وليس فرض السيادة الكاملة .

واستمسك ستالين بالعرض الألمانى ، وشرب الشمبانيا نخب تحالفه مع الألمان وودع الألمان أحر الوداع لدى رحيلهم ومغادرتهم إلى برلين عائدين لبلادهم . وبعد ذلك بعشرة أيام ، غزا هتلر بولندا وبعد شن الهجوم الخاطف الألمانى « بليتز كريج » غير المسبوق ، أصبحت روسيا وألمانيا مشتركتين فى الحدود المشتركة . أما بريطانيا وفرنسا فقد أعلنتا فى نفس الوقت الحرب ضد ألمانيا .

واكتسبت محطة المخابرات البريطانية فى هلسنكى أهمية جديدة فى سبتمبر ١٩٣٩ ، وكان ستالين لايثق فى حلفائه الألمان الجدد ، وشرع سراً فى عقد المفاوضات فى هلسنكى لإيقاف الزحف الألمانى عبر فنلندا وحماية البحر البلطى الذى سوف يؤدى تلغيمه إلى شل الأسطول الروسى فى « كرونستاد » غير أن الفنلنديين رفضوا العرض الروسى الخاص بتقديم المساعدات العسكرية وتحصين الجزر الكبرى الواقعة على البحر البلطى ومداخله ، وزعموا أن أى اتفاق من هذا القبيل سوف يضر بحياد دولتهم . غير أن ستالين لم يأبه لذلك ، حيث أفضى لهم بأنه عندما تنشأ الضرورة ، فإن هتلر لن يحترم أى حياد لفنلندا .

وفى ٣٠ نوفمبر ١٩٣٩ ، وفى أعقاب انتهاء المفاوضات ووصولها إلى طريق مسدود ، أصدر ستالين أوامره بشن قصف مدفعى ودك صاروخى محدود للمناطق الساحلية الفنلندية ، وشن غارة جوية على العاصمة وإرسال الجيش السابع للاستيلاء على

هلسنكى . وتـوقع الزعيـم السوفيتى تحقيق النصر فى غضـون أسبـوع واحد . وكـان يشاركه تفـاؤله الليفتنانت كولونيل « فـالى » الملحق العسكرى البريطانى فى هلسنكى ، الذى كان يقدم معلومـات ضئيلة عن الجيش الأحمر ، واستبعد احتمال بقاء الفنلنديين أمام الغزو لما يزيد على الأيام القليلة .

أما « كار » فقد كانت له وجهة نظر أخـرى ، حيث تأثرت عواطفه مما كان يكنه من حب وتقدير للفنلنديين ، ولم يكن يأبه كثيراً لاعتبارات التكتيكات العسكرية التى لم يكن يفهم منها كثيراً . وكتب يقول : إن « فالى » قد أساء الحكم على الحقائق الخاصة بالقتال فى بقاع درجـة الحرارة فيها تبلغ الأربعين تحت الصفر ، وفى تلك الظروف تكـون الميزة والتفوق للجودة النوعية وليس للضخامة العددية أو الكم الجرار .

وأمضى « كـار » يقول : إنـه لن يكون ثمـة انتصار كـاسح والحالة هكـذا وجعل يـراقب حركـة القتال وأرسل المعلـومات العظيمـة حول تكتيكـات الجيش الأحمـــر ، وتسلحه ، وقيـادته ، وقـدراته ، ذلك أن الحرب المعلنـة ليست أقل من استعـراض عام للتفصيلات العسكريـة التى تصبح فى زمن السلم أسراراً مطبقة التكتم .وبلغت خسائر الجيش الأحمر حوالى ٢٠٠,٠٠٠ مابين قتيل وجـريح وفقا لتقارير رجـال العسكرية ، فضلاً عن استخبارات المستر « كار » التى اتفقت كلها حول هذا الرقم .

ولما انهار التقدم السوفيتى ، بدأت حكومة تشمبرلين فى تغيير توجهاتها . ومن هنا كتب السير « أورمى سـارجنت » نائب وكيل وزارة الخارجيـة البريطـانية ، يقـول : إن بريطانيا لم تعلق أى أهمية حقيقية على الوجود المستمر لفنلندا ، غير أن هذا التقييم تغير وأن بريطانيا الآن تريد استغلال الفرص الخاصة بقتال فنلندا ضد روسيا .

وهذه بمثابة اللحظة المهمة بالنسبة إلى « كار » وعلى الرغم من أن بريطانيا كانت فى حالـة حرب مع ألمانيـا ، إلا أنه كـان يعمل فى دولة تحارب وتقاتل مـن أجل الحفاظ على وجـودها ضـد روسيـا . ولم يكن وحيداً فى الشعـور بإحيـاء الحروب الصليبية ضـد الشيوعيـة . إن السير « بول ديـوكس » وصل إلى هلسنكى نيابـة عن جهاز المخـابرات السرية البريطانية من أجـل قياس فرص الدعاية المناهضـة ضد روسيا وحتى من أجل استكشـاف إمكـانية أن يقـوم الفنلنـديـون بإلحاق الهزيمة المنكـرة بـالجيش الأحمر واحتلال « لينجراد » .

واعتقد الضباط العسكريون والاستخباريون الفنلنديون الذين كانوا ينصتون إلى

« ديوكس » و « كار » أن المخابرات السرية البريطانيـة وحتى الحكومة البريطانية كانوا حلفاء أشـداء وأقويـاء حيث أن كلا الضابطين وصفـا ، بمبالغـة كبرى ، المادة الحربية الحيوية التى أرسلتها بريطانيا .

وبـالنسبة إلى العمل المهنى للمستر « كـار » كانت الحرب الشتـوية نعمـة وبركـة فالعلاقـات الحميمة التى تمت بين ضابط مخابـرات الدولة البريطانيـة السرية وأجهزة المخابرات الفنلندية ، كانت بمثابة المفتاح لترقيته .

وتعرضت شبكـة استخبارات فنلنـدا للعزلـة على الصعيد الجغـرافى والسياسى ، وخصوصاً وكالاتها وأجهزتها المتخصصة التى كان يـديرها « رينو هالّاما » التى كانت تعد مفخـرة بين سائر الأجهزة الأخـرى . وفى أوائل الثلاثينات ، اشترى « هـالاما » من اليابـان المفتاح الخاص بفك الشفرة السـوفيتية خماسية الأرقام المستخـدمة فى الشرق الأقصى .

وفى عام ١٩٣٧ ، بدأ السوفيت فى استخدام نفـس الكود فى الحرب ، وبالتالى ، أثناء الحرب ، مما أهل الفنلنديون آنذاك كنتيجة طبيعية من قراءة الرسائل الروسية الخاصة بسلاحى البحـرية والمشاه . واعتبر هذا أمـراً ذا أهمية واهتمام قصوى لدى المخـابرات البريطانيـة لأنها فى عام ١٩٢٧ ، وفى أعقاب تقـديم حكومـة « بولدوين » إلى الحكـومة السوفيتية ـ رمـوز فك الأكواد الخاصة بالرسائل السـوفيتية ... وذلك بغرض الإثبات أمام الشيوعين أنهم متورطون فى الأنشطة المعاديـة لبريطانيا ، كذريعة لقطع العلاقات الدبلوماسية ، مما حدا بالسوفيت إلى تغيير شفراتهم .

فكان حتماً أن يتغير رجـال الشفرة البريطانيـون ويعجزوا عن قراءة أى بـرقيات روسية إضافية . وفى عام ١٩٤٠ انكشف سر « هـالّاما » أمام المستر « كار » الذى شرع فى توريد نهر دافق من المعلومات عن السوفيت إلى لندن .

ولم يكن « كار » يعلم بـأن الفنلنديين يبيعون منتجـاتهم بصفة دوريـة ومنتظمة ليس فحسب لمن يدفع السعـر الأكبر ، وإنما لأى زبون يصـادفهم ، كما أن رجال كسر وفك الشفـرة الذين يعملـون لحسـاب « هالّامـا » استطاعـوا أيضـا فك أكواد أجهـزة المخابـرات البريطانيـة السرية . إن رسائل المستر « كـار » إلى لندن تم فكهـا وبيعها إلى الألمان .

وكان فخراً أيما الفخر للمستر « كار » نفسـه أن يعجب بتدفق المعلومات التى كان

يرسل بها إلى « برودواى » . فساورت الشكوك الكولونيل « ساموسى ماكجيل » الملحق العسكرى البريطانى الجديد الذى وصل إلى هلسنكى فى عام ١٩٤٠ ، حول الثقة الكبرى التى تبديها المخابرات البريطانية فى طول وقوة المقاومة الفنلندية ضد الروس .

وأرسل « كار » بتقاريره التى جاءفيها أنه صار عرضة للاعتقاد اعتقاداً غير مسبب بأن المعلومات الاستخبارية البريطانية حول روسيا لم تكن غالباً صائبة . ثمة أسباب ضئيلة للشك فى تقييم « ماكجيل » .

وفى شهر فبراير وعلى الرغم من القتال الشديد إلا أن فنلندا هزمت من جراء القصف والدك السوفيتى العنيف والمتراكم . وصدر التحليل اللاحق للمعلومات الاستخبارية التى جمعها الملحقون العسكريون والبحريون فى أوروبا قبل عام ١٩٣٩ يقول بأنه على الرغم من أخطائهم الخطيرة ، إلا أنهم كانوا أكثر دقة من تقديرات أجهزة المخابرات البريطانية السرية .

وافقت كل من فنلندا وروسيا على وقف رطلاق النار فى ١٣ مارس عام ١٩٤٠ . وعلى مدار العام التالى ، صار المستر « كار » والمستر « بوسلى » بؤرة الاهتمام الكثيف من جانب مجموعة من المسئولين الفنلنديين المعادين للسوفيت . حيث كانت معلومات الفنلنديين حول النوايا السوفيتية تتصف عموماً بعدم جدواها أو بقلة قيمتها . غير أن الذى حدث بعد ذلك هو أن قام أحد الضباط بالجيش الفنلندى بتقديم معلومات هامة للغاية إلى المستر « كار » فى ديسمبر ١٩٤٠ ضمنت له مكاناً مرموقاً فى تاريخ مخابرات الدولة السرية البريطانية .

إذ سمع أن ألمانيا ، سوف تقوم بشن هجوم على روسيا فى ربيع عام ١٩٤١ . وقدم المستر « كار » تلك المعلومات وأرفق بها التقارير الواردة من العملاء الألمان العاملين فى مدينة « ريجا » المطلة على البحر البلطى .

وقدم المستر « كار » التقرير إلى « برودوى » واستطاع أن يزعم فيما تلى ذلك من سنوات بأنه حقق كسبا للمخابرات السرية البريطانية ، وشيئاً من الاحترام والتقدير الذى كانت تلك الوكالة فى حاجة ماسة إليه ، ولنفسه فضمن بذلك حق الترقى .

وفى يونيو ١٩٤١ ، حينما ثبتت صحة نبؤة المستر « كار » وغزا الألمان روسيا ، تحالفت فنلندا مع المعتدى ضد الشيوعيين . وأغلقت السفارة البريطانية وتم تحويل هيئة العاملين إلى دولة السويد المحايدة .